http://nj180degree.com

مقدمـــة "الدفـــاع"

يضعنا أفلاطون هنا فى هذه المحاورة[1] مع سقراط مباشرة. وعلى حين أن "الدفاع" الذى ألفه إكسينوفون[2] لنفس الغرض، أى لغرض رد الاتهامات التى وجهت إلى سقراط، يبدأ بمقدمة من مؤلفه، فإننا نجد أنفسنا هنا أمام سقراط نفسه منذ أول كلمة حتى آخر السطور، وبدون أن نقحم فى قراءتنا اسم أفلاطون، وكأن هذه هى نفسها العبارات التى خاطب بها سقراط قضاته أثناء محاكمته فى أثينا عام ٣٩٩ ق.م. والأغلب أن يكون ذلك مقصوداً من أفلاطون، فهو أدعى إلى التأثير، ويجعلنا، على الأقل فى قراءتنا الأولى، نأخذ جانب سقراط وننحاز إليه وننظر إلى الأمور من خلال نظرته (أو من خلال نظرة أفلاطون، وكلا التعبيرين ينتهى إلى نفس النتيجة، لأن هذا "الدفاع" كتبه أفلاطون، وسقراط فيه هو سقراط أفلاطون، أى كما رآه وفسره أفلاطون)، مما يسبغ على تلك النظرة طابعاً يجعلها تبدو طبيعية.

وهناك انطباع عام عن سقراط يخرج به قارئ "أوطيفرون" و"أقريطون" وقارئ "الدفاع" على الأخص، وهو انطباع عن "تجرده". فكثيراً ما نحس كما لو أن اهتمام سقراط لا يذهب أول ما يذهب إلى شخصه هو، بل إننا نراه فى "أقريطون" لا يكاد يضع اعتباراً لشخصه على الإطلاق، وإنما هو ينظر إلى الأمر كله وكأنه ينظر إليه من الخارج نظر الفيلسوف الذى لا يريد إلا التماس الحقيقة حيثما كانت، والذى لا تهمه إلا الحقيقة من أجل السلوك سلوكاً عادلاً.

ويظهر تجرد سقراط فى "الدفاع" منذ الكلمات الأولى. فهو يصرح أنه كاد ينسى من هو وهو يستمع إلى خطب متهميه "المقنعة". ما معنى هذا؟ معناه أن سقراط إنغمس بكله فى الاستماع إلى تلك الخطب متفتح العقل أمام ما ستقول بلا رفض مسبق لها. فكل القضايا جديرة بالاستماع وجديرة بالفحص عند سقراط،

---

(١) هكذا تسمى تقليدياً رغم أنها فى الواقع خطبة طويلة، وإن كان يتخللها حوار قصير (٢٤جـ – ٢٨أ).

(٢) ما كتبه، وخاصة كتابه "المذكرات"، من أهم مصادرنا عن سقراط التاريخى. ونحن لا نشير إليه إلا لماما كما أشرنا من قبل، لأننا نعرض هنا لسقراط كما يراه أفلاطون. أما عن سقراط التاريخى فإنه سيكون موضوع كتاب كامل نقدمه قريباً.

http://nj180degree.com

وسيتبين لنا وجه جديد من أوجه تجرد سقراط حينما نتحدث بعد قليل عن سعيه وراء الحقيقة. ووجه آخر لهذا التجرد هو أن سقراط أثناء دفاعه يهتم بالأثينيين أكثر من اهتمامه بنفسه، وهو ينبههم إلى أن ما فعلوه بإدانته سيجلب العار على المدينة، لأن رجال المدن اليونانية الأخرى سيقولون: "لقد أعدم الأثينيون سقراط الحكيم" (٣٨جـ). كذلك فإن حياة سقراط كلها كانت، كما يقول هو ، مكرسة لخدمة مواطنيه، والدليل القاطع على ذلك هو فقره. ولعل أوضح مظهر للتجرد السقراطى منظوراً إليه من هذه الزاوية هو قوله إنه حتى لو عرض عليه الأثينيون أن يطلقوا سراحه على شرط أن يصمت فإنه سيرفض، وسيستمر فى التفلسف كما فعل حتى الآن وفى فحص الجميع، غرباء ومواطنين، "وعلى الأخص معكم أنتم أيها المواطنون الأثينيون، لأنكم أقرب إلىّ بالدم" (٣٠أ)، حتى ولو كان ثمن ذلك أن يموت مرة ومرات.

وسقراط فى دفاعه لا يهدف إلى النجاة بأى ثمن، وإنما هدفه هو قول الحقيقة. ورغم أن سقراط يستخدم أحيانا لفظ "الإقناع" للدلالة على سلوكه هو، فإنه ربما كان من الأفضل قصر هذا اللفظ ومشتقاته على سلوك الآخرين ومعارضته بمفهوم "إظهار الحقيقة"، بل إن هذه المعارضة تظهر منذ السطور الأولى "للدفاع" التى نجده فيها يصف خطب متهميه بأنها "مقنعة"، على حين أنه هو سوف يقول "الحقيقة". فرغم المظهر المقنع لتلك الخطب إلا أنها لا تحوى إلا زيفا. وسيكشف سقراط عن هذا الزيف بمحض كشفه عن الحقيقة، وسيكون فى هذا الكشف التكذيب القاطع لهم. ونلمح هنا تلك الثقة الساذجة فى قدرة الحقيقة، والتى سنراها تؤثر تأثيرا فعليا كفرض أساسى يؤسس كل سلوك سقراط قولا وعملاً.

وسقراط سيقول الحقيقة كل الحقيقة ولن يخفى شيئا (٢٤أ). فمن عادة الفيلسوف ألا يخيفه شىء، وهو يظل يجرى وراء الغامض حتى يستوضحه، بل لن يخشى أن يعلن جهله إن كان هذا هو الحقيقة. وما أعظم الفرق بين موقف سقراط هذا وموقف مواطنيه الذين إن هم سئلوا: كيف يتلف سقراط الشباب؟ ماذا يقول وماذا يفعل حتى يفسدهم؟ حاروا جوابا، ولكنهم، حتى يخفوا حيرتهم وجهلهم، يجيبون بتلك الإجابات التى تقال ضد كل مشتغل بالفلسفة والتى لا يعرفون لها فى الحق معنى دقيقا، ولا يهتمون بسؤال أنفسهم إن كانت تنطبق بالفعل على سقراط أم لا.

http://nj180degree.com

وسنعود مرة أخرى بالتفصيل إلى موضوع البحث عن الحقيقة عند الحديث عن "البعثة" السقراطية.

قلنا إن سقراط لا يهدف إلى النجاة بأى ثمن، وعلى الأخص ليس بثمن العبارات المنمقة ولا الاستعطاف المهين. فهو يحذر القضاة الخمسمائة الذين يمثل أمامهم أنه سيتحدث على نفس النحو الذى كان يتحدث عليه فى السوق أو بجوار الدكاكين أو أثناء المآدب، ولهذا، لأنه لا يهتم إلا بقول الحقيقة كل الحقيقة والحقيقة فقط، فإنه لا يحتاج إلى خطب منمقة ولا إلى كلمات مختارة مغلفة فى عبارات متأنقة، كما هو حال "شبابنا هذه الأيام" (١٧ ب - جـ). وسقراط يدرى أنه يطلب منهم مطلباً صعباً. فهؤلاء قوم قد اعتادوا على ذلك النوع من الخطب الذى يعرف كيف يبهر فيستميل القلوب والعقول، وكأن للقضاة أن يتأثروا بشىء غير الحقيقة! ومن هنا كان رفض سقراط لوسيلة ثانية من وسائل التأثير فى القضاة اعتاد عليها القضاة والمتقاضون معاً، ألا وهى وسيلة الاستعطاف والاسترحام بالبكاء والإتيان بالأسرة والأطفال وعرضهم أمام المحكمة أملا فى التأثير عليها. ما هى على الدقة دوافع رفض سقراط للجوء إلى هذه الطريقة؟ هو يقول إنه ليس من غرضه تحدى القضاة بألا يفعل ما يتوقعون منه أن يفعل، وليس السبب أنه يجابه الموت فى غير خوف أو فى خوف، إنما هو يضع فى اعتباره سمعتهم وسمعته وشرفهم وشرفه، ولهذا فإنه لن يلجأ إلى هذه الطرائق الوضيعة (٣٤هـ). فماذا سيقال عن سقراط الحكيم، أو الذى يقال عنه إنه حكيم وإنه بالتالى من بين فضلاء أهل أثينا؟ هل يقبلون هم على أنفسهم هذا: أن يحكموا بقدر غزارة الدموع وصياح الأطفال؟ كلا، سقراط لن يفعل مثلما يفعل أولئك الذين يظنون أنهم قد وهبوا الحياة خلداً، والذين لا يملكون من الشجاعة إلا ما تملك النسوة (هكذا يقول سقراط) (٣٥ب). هذه إذن مجموعة من الاعتبارات التى يمكن أن نسميها بالاعتبارات الأخلاقية. وهناك اعتبار يمكن أن نسميه بالدينى، ولو أن طابعه "الخطابى" واضح شاء سقراط ذلك أم لم يشأ، وهو أن القضاة قد حلفوا اليمين أمام الآلهة بأن يحكموا بالعدل، فلو جاء سقراط وحاول التأثير عليهم بتضرعاته ليجبرهم على الحكم بغير العدل، إذن لكان فى سلوكه ذاك ما يفيد أنه يعلمهم ألاّ وجود للآلهة، ولكان يؤكد هكذا الاتهام الموجه إليه فى هذا الشأن. ولكن هناك اعتباراً أخيراً، وهو فى الحق أقواها، ونجده فى هذه الفقرة نفسها التى يأتى فيها الكلام السابق (٣٤ هـ وما بعدها)، كما نجده

http://nj180degree.com

فى الفقرة الخاصة بطريقة سقراط فى الكلام (١٧ ب – ١٨أ)، وهو اعتبار أقرب ما يكون إلى الاعتبارات الفلسفية، وتلخصه هذه العبارة: فضيلة الخطيب أن يقول الحقيقة، أما فضيلة القاضى فهى البحث عن الحق. وهكذا فإن مهمة سقراط ليست أن ينمق عباراته بل أن يقرر الحقيقة عارية، ومهمة القاضى ألا يهتم بطريقة الكلام بل بمضمونه وبالكشف عما إذا كان ما يقال حقا وعدلا أم لا (١٨أ). ويؤكد سقراط هذا المعنى حين يقول: "وبصرف النظر عن الشرف، أيها المواطنون، فما أجد حقا التوسل إلى القاضى ولا النجاة بفضل هذا التوسل، وإنما الواجب هو إعلامه وإقناعه. فما يجلس القاضى فى مقعده من أجل هذا: أن يوزع العدل كما يحلو له، بل من أجل أن يفصل بالعدل" (٣٥ ب – جـ).

هكذا كان موقف سقراط: لا يقول إلا الحقيقة ولا يفعل إلا ما يسمح به الشرف وترضى به الكرامة، وهكذا تلتقى الفلسفة بالأخلاق. ويجب أن نولى هذا الموقف السقراطى ما هو جدير به من الأهمية، لأنه كان من العوامل التى شاركت فى إدانة سقراط، وكان لا شك العامل الأكبر الذى جعل هذه الإدانة تكون على صورة الحكم بالإعدام. وسقراط على وعى بكل هذا حين يقول لمن حكموا بإعدامه: "ما أدنت افتقاراً إلى خطب فى الواقع، بل افتقاراً إلى الجسارة والوقاحة ولأننى لم أرد أن أتحدث أمامكم على النحو الذى لعله كان سيمتعكم سماعه أعظم إمتاع، ألا وهو سقراط يئن وينوح، فاعلا وقائلا أشياء كثيرة لا اعتبرها جديرة بى، بحسب ما أقول أنا، أشياء تعودتم أنتم على سماعها من الآخرين" (٣٨ د – هـ).

كان هذا هو الموقف الأول لسقراط أمام قضاته: سقراط المعلم أو المربى. وهو نفس موقفه من مقدم الإدعاء عليه، مليتوس. فحديثه معه (٢٤ جـ – ٢٧أ) إنما هو حوار صغير يتبع فيه سقراط طرائقه المعتادة فى التحاور، ويصل إلى تفنيد محاوره وبيان أنه لا يدرى شيئا عما يتحدث، مهتما على الخصوص ببيان تناقضات مليتوس. ولنأخذ على ذلك مثلا إظهار عدم اتساق مليتوس فى ادعائه على سقراط أنه لا يؤمن بالآلهة: أولا لأنه يخلط بينه وبين أنكساجوراس، وثانيا لأنه يعترف أن سقراط يقول بوجود "جنى" يظهر له على شكل صوت، وكان من فصيلة إلهية. فالقارئ لهذا الحوار يجد أن سقراط يظهر فيه على طريقته العادية فى المناقشات الفلسفية، وإن كان يلاحظ شدته فى التهكم على مليتوس وفى تأنيبه له لجهله بما يدعى معرفته والاهتمام به.

http://nj180degree.com

بعد موقفه كمعلم وكمرب، يقف سقراط أمام قضاته وأمام متهميه موقف رجل الأخلاق. وقد ألمحنا إلى هذا الموقف أثناء حديثنا عن "الحقيقة" فى كلام سقراط، ولكنه يظهر بوضوح أكثر من المكان الذى يحتله مفهوم "العدل" فى "الدفاع". بعد أن رد سقراط على متهميه القدماء والمحدثين، يقول إن أحداً قد يسأله لم اختار هذا النوع من الحياة الذى اتخذه لنفسه والذى قد يقوده اليوم إلى الموت، وسيكون رده: إن رجل الفضيلة لا يجب أن يحسب حساب الحياة أو الموت، إنما المعيار الوحيد لسلوكه يجب أن يكون العدل وتجنب الظلم (٢٨ب)، حتى لو كان ذلك يضعه أمام خطر الموت. وليس هذا من سقراط مجرد عرض لفرض من الفروض، إنما حدث له فعلا، فيما يقول، من المواقف ما عرَّضه للموت أو للخطر الشديد بسبب تمسكه بالعدل. ويأتى على ذلك بحادثتين: الأولى وقعت له أثناء النظام الديمقراطى، والثانية أثناء حكم الطغاة الثلاثين (الذى جاء بعد انهزام أثينا ونظامها الديمقراطى أمام إسبرطة، واستمر بضع شهور عام ٤٠٤ - ٤٠٣ ق.م.، وكان منهم كريتياس أحد مصاحبيه). فأثناء المرة الوحيدة التى تقلد فيها وظيفة سياسية حينما جاء دور قبيلته لتولى السلطة السياسية، فأصبح هو بذلك عضواً فى البروتانيا (انظر ٣٢ ب وتعليقنا)، أراد الشعب أن يحاكم معاً عشرة قواد من قادة الجيش بتهمة عدم انتشال جثث الموتى الأثينيين الذين سقطوا فى معركة أرجينوساى البرية (عام ٤٠٦ ق.م)، ولكن سقراط كان الوحيد الذى عارض هذا القرار، لأنه اعتبره مخالفاً للقانون، وأدلى بصوته المعارض ضد كل الشعب، وكان الخطباء على وشك أن يقدموه من أجل هذا إلى المحاكمة، وكان الجمهور يدفعهم إلى هذا بصياحه. ورغم هذا الخطر الكبير، فقد اعتبر سقراط أن من واجبه ألاّ يضع للخطر حساباً وأن يبقى حتى النهاية مع القانون ومع العدل (٣٢ ب - جـ)، لأنه بين صف العدل وصف كل الشعب مجتمعاً يفضل جانب العدل، حتى ولو بقى فيه وحيداً بلا نصير. فعل سقراط هذا فى عهد الحكم الديمقراطى، وفعل مثله أيضاً فى عهد الحكم الأوليجاركى (أى حكم الأقلية)، حينما أراد "الثلاثون" حاكماً أن يرسلوا سقراط خامس خمسة ليأتوا إليهم بأحد المواطنين لإعدامه، وذلك بغرض إشراكهم فى جرائمهم، ولكنه رفض الذهاب مع الأربعة الآخرين، وكاد يدفع ثمن هذا بحياته لولا أن انقلب حكم الثلاثين بعد قليل (ولنلاحظ أنه كان من بينهم بعض أصدقاء سقراط، وخاصة كريتياس الذى كان من كبار زعمائهم). يقول سقراط: "إن كل ما

http://nj180degree.com

اهتم به هو عدم القيام بأى عمل كان ظلماً أو بعيدا عن التقوى، وهكذا فإن هذا النظام لم يرهبنى، مهما كانت سطوته، حتى أقوم بفعل ظالم" (٣٢ د). ونفس هذا الاعتبار، مراعاة العدل دوما، هو الذى أدى بسقراط إلى عدم الاشتغال بالسياسة، لأنه يعرف أن هذا الطريق مؤد به لا محالة إلى ارتكاب الظلم (٣٢هـ). هكذا كان سقراط مراعيا العدالة، وليس فقط فيما يخص الشئون العامة، بل وكذلك فى حياته الخاصة. فما حدث يوما، فيما يقول، أن تنازل لأحد عن شىء مخالف للعدالة، حتى ولو كان هذا الشخص من صلاته الشخصية (٣٣أ، وعن العدل انظر أيضاً ٣٥ جـ، وكذلك ٤١أ – ب عن العدل فى الآخرة).

ويجب أن ننتبه هنا إلى عمق "الثورة" التى يحدثها سقراط فى أسلوب السلوك، ومدى الفرق بين مبادئ سلوكه ومبادئ السلوك التقليدى الذى يقوم، فى كلمة واحدة، على مبدأ "الجسد"، هذا على حين أن سلوك سقراط أساسه العدل، وبصفة عامة "القيمة" الأخلاقية. ويتضح هذا الفرق وتلك الثورة حين نفحص عن كثب مفهوم سقراط عن "الشر"، ويتضح لنا ما يخشاه وما لا يخشاه.

نعرف أن سقراط كان يعتبر نفسه "مبعوث" العناية الإلهية إلى الأثينيين، وسنتحدث عن هذا بالتفصيل فى القسم التالى، وقد أوجبت عليه هذه "البعثة" أن يفحص مواطنيه كاشفا عن ادعاءات مدعى المعرفة. وقد كون له هذا السلوك كل يوم أعداء جدداً، وكان يعرف هذا (٢١هـ)، ورغم ذلك استمر فى طريقه لأنه كان هناك شىء يخشاه أكثر من خشيته لعداوة البشر، ألا وهو عصيان الإله. وهو يقول حرفيا: "أنا أعزكم أيها الأثينيون وأحبكم، ولكنى أطيع الإله أكثر مما أطيعكم" (٢٩ د).

ويجب أن نقدر هذا التصريح حق قدره على ضوء إدراكنا لقوة "الشعب" فى النظام الديمقراطى السائد وقت المحاكمة، وإذا تذكرنا أن هذا "الشعب" ما هو إلا قضاته أنفسهم. من جهة أخرى، فإن "الإله" الذى يطيعه سقراط إنما هو إله الحق، أو هو الحقيقة نفسها، وإذا علمنا أن الحقيقة هى مصدر المعرفة والأخلاق معاً، اتضح لنا أن ما يعطيه سقراط إنما هو فى النهاية "القيمة" الأخلاقية ذاتها (انظر ٢٨ ب، د، ٣٢ د).

وهكذا نجد أنفسنا أمام إحدى "محيرات" سقراط: فهو يخشى ارتكاب الظلم أكثر

http://nj180degree.com

مما يخشى الموت. ولكننا إذا تأملنا فى الأمر لما وجدنا فى ذلك مدعاة إلى الحيرة حقيقة. ذلك أنه يوجد عند سقراط ما يمكن أن يسمى "بسلّم" للشرور (٣٠د)، فهناك شر أعظم من شر، والأول أحق بالخشية. وعنده أن الظلم أكثر شراً من الموت، وذلك لهذا السبب البسيط: فهو لا يدرى إن كان الموت شراً أم لا، هذا بينما أن سقراط لا يخشى من الشرور إلا ما يعرف بالفعل أنه شر: "إننى أعرف أن الظلم وعصيان الأفضل، سواء أكان إلها أم بشراً، شىء قبيح ومخجل. أما بعد الأشياء السيئة التى أعرف أنها سيئة فإننى لن أخشى ولن أتهرب أبداً من الأشياء التى لا أعرف إن كان قد يحدث أن تكون أشياء حسنة" (٢٩ب). وهكذا، بسبب اختلاف سلّم القيم عند سقراط وعند "الشعب"، لم يعد التهديد بالموت كافيا لثنى سقراط عن طريق يعتقد أنه طريق العدل (٣٢أ)، وهو القيمة الأخلاقية التى يضعها فوق كل شىء (٣٢هـ).

وما دام الأمر كذلك، فإنه من الطبيعى ألا يخشى سقراط لا أنيتوس، وهو المحرض الأول على اتهامه، ولا مليتوس، مقدم الإدعاء، لأنهما غير قادرين على إيذائه ولو أبسط إيذاء. وكيف ذلك؟ لأنهما قد ينجحان فى إصدار حكم عليه بمصادرة ما يملك أو بالنفى أو بالموت، ولكن كل هذا ليس شيئا فى نظر سقراط إلى جانب ارتكاب الظلم (٣٠ د). وفى هذا المقام نجد نصاً لسقراط خطيراً غاية الخطر، على الرغم من أنه فى كلمات قلائل، ويمكن أن يجعل من سقراط سلفا للمذهب الرواقى: "عندى أنه ليس بإمكان مليتوس ولا أنيتوس إلحاق الضرر بى، فهما غير قادرين على ذلك، حيث إننى لا أعتقد أنه من المسموح به أن يضير الأسوأ الأفضل" (٣٠جـ - د).

وجدنا حتى الآن أن سقراط يخشى عصيان الإله، ووجدناه كذلك يخشى ارتكاب الظلم أكثر من خشيته أى شىء أخر، فمرجعه هنا إذن هو الدين، أى تصوره الخاص للدين، والقيم الأخلاقية. وهناك شىء ثالث يخشاه سقراط، ألا وهو عدم الاتساق الذاتى، والمرجع هنا هو الفكر الذى لا يتناقض مع نفسه أو الحقيقة أو الفلسفة بصفة عامة. فهل سيتراجع سقراط الآن، أمام تهديدات المدعين عليه، عن متابعة مهمته الفلسفية والأخلاقية، وهو الذى قضى عمره منفذا لها ومطيعا لأمر الإله؟ وهل يجدر به وهو فى سنه ذاك، وقد تجاوز السبعين، وفى شهرته هذه، أن

http://nj180degree.com

ينقض كل مبادئه السابقة؟ كلا، وإلا أصبح كل ما كان يقوله، كما سنقرأ فى محاورة "أقريطون"، عبثا وكلام أطفال. ولنفس هذا السبب فإنه لا يندم على شىء، ولو أعدموه مائة مرة لعاد فى كل مرة ليفعل نفس الشىء.

هذا هو موقف سقراط، رجل الأخلاق، من قضاته ومن متهميه.

هذه المواقف السقراطية، موقف التجرد وموقف المعلم والمربى وموقف رجل الأخلاق، لن تفهم حق فهمها إلا إذا أُرجعت إلى أساسها، وأساسها هو موقف سقراط باعتباره "رجل البعثة الإلهية".

ونقطة البدء فى هذا الموضوع هو قول إله معبد دلفى، الإله "أبوللون"، على لسان كاهنة المعبد، إنه ليس هناك (بين اليونان) من هو أحكم من سقراط. ولنحدد ظروف هذه الإجابة أو "النبوءة"[٣]. فقد جاءت رداً على سؤال لأحد أصحاب سقراط المخلصين، وهو خيرفون. ونستنتج من هذا على الفور أن "حكمة" سقراط كانت شيئاً معروفاً قبل هذا الوقت، أو كانت على الأقل موضع خلاف، فهذا وحده هو الذى يفسره صيغة سؤال خيرفون الذى وجهه إلى الكاهنة: هل هناك من هو أحكم من سقراط؟ ولا ندرى يقينا تاريخ هذا السؤال، ولكن هناك تاريخاً محدداً نعرف أن مسألة "حكمة" سقراط كانت موضوعة فيه على الأقل (وربما قبله)، ألا وهو عام ٤٢٤، عام ظهور مسرحية "السحب" للشاعر أرستوفانيز، وفيها يظهر سقراط كرئيس لمدرسة أعضاؤها من "النفوس الحكيمة" أو العلماء. والآن: هل نضع سؤال خيرفون وإجابة الكاهنة قبل هذا التاريخ أم بعده؟ ليس ثمة ما يمنع من وضعه بعده، بل وبعده بكثير، أى خلال العقد التاسع من القرن الخامس ق.م (ما بين ٤١٩ و ٤١٠). ولكننا نميل إلى وضعه قبل عام ٤٢٤، لأن نص "الدفاع" نفسه يدعونا إلى ذلك، حيث إن سقراط يتحدث عن مسرحية أرستوفانيز باعتبارها أحد المصادر القديمة "للافتراء" الذى تعرض له سقراط (١٩ب - جـ)، ولكن سقراط لا يعرض لمسألة جواب الكاهنة عن سؤال صديقه إلا فى معرض حديثه عن الأسباب التى أدت إلى ظهور هذا الافتراء (٢٠جـ)، وهكذا يكون ذهاب خيرفون إلى معبد دلفى، بل وحيرة سقراط أمام معنى "نبوءة" الكاهنة، وقسما من سلوكه للتأكد من معناها، واقعا قبل عام ٤٢٤ ق . م.

(٣) انظر هامش ٥٧ على النص.

http://nj180degree.com

ذلك أن سقراط احتار بالفعل أمام ما يقصده الإله: فهو يدرك أنه ليس "عالماً" فى أى ميدان من ميادين المعرفة وأنه ليس بالتالى "حكيماً"، ولكن الإله لا يمكن أن يكذب، "فهذا لا يجوز عليه" (٢١ب). فكان على سقراط إذن أن يبحث عن معنى النبوءة التى كانت كعادة نبوءات كاهنة معبد "أبوللون" غامضة. فأخذ يمسك بمدعى المعرفة، أو بمدعى الحكمة، وهى نفس الشىء، واكتشف أنهم ليسوا حكماء على الحقيقة، وإنما يدعون العلم فقط. ووجد لنفسه عليهم هذا التميز: أنه مثلهم لا يعرف شيئاً معرفة العلم، ولكنه لا يدعى مثلهم المعرفة، ولهذا فهو أحكم منهم.

ويهمنا أن نقول إن موقف سقراط بإزاء قول الإله كان نفس الموقف الذى كان يتخذه من أقوال البشر، ألا وهو موقف الفحص. ولننتبه جيداً إلى أن سقراط ظل فترة طويلة يتدبر معنى نبوءة الإله. وأخيراً، وبعد لأى ومشقة كبيرين (٢١ب)، قرر سؤال الآخرين منتقلا هكذا من فحص القول الإلهى إلى فحص ادعاءات الآخرين الحكمة. وينبغى أن نسأل أنفسنا: ولم اختار هذا الطريق فى محاولته معرفة معنى النبوءة؟ يجيبنا سقراط على ذلك بأنه يبدأ فى كل حالة بفرض أن الشخص الذى أمامه أعلم منه، وإذا تحقق من صحة هذا، فإن الإله لن يكون محقا فى القول بأن سقراط أحكم اليونان، ولكن لكى تكون هذه النتيجة صحيحة فإنه يجب أولاً أن يكون الفرض صحيحا، ومن هنا كان فحصه لعلم الآخرين.

ويخطئ من يظن أن الفحص فى هذه المرحلة هو ما يكوّن مضمون "البعثة" السقراطية، فهذه البعثة لم تبدأ بعد حتى الآن.

وإنما هى تبدأ بعد أن اكتشف سقراط معنى النبوءة، وبعد أن ظهر له قصد الإله. فالإله يقصد أن يقول إن أحكم البشر هو من تحقق، مثل سقراط، إن حكمته لا تساوى شيئاً بالقياس إلى الحقيقة (٢٣ب)، فسقراط هنا ليس إلا مثلا يبرزه الإله لتشخيص قصده. هذا الاكتشاف هو مركز البعثة السقراطية الحقيقى، وهو الذى يغير من وجهة حياة سقراط بأسرها، ويغير كذلك على الخصوص من مغزى فحصه للآخرين.

فنشاط سقراط بعد هذا الاكتشاف يصبح نشاطا موجها نحو هدف فلسفى وأخلاقى معا. ولم يعد هذا النشاط قاصراً على مجرد فحص الآخرين، بل أصبحت تتبعه مرحلة تالية، هى الأهم فى الواقع، وهى مرحلة "الدعوة". ولنتأمل كل ذلك عن كثب.

http://nj180degree.com

ما هو مضمون هذه البعثة الإلهية؟ بعد أن يحدد سقراط قصد الإله، أى تفسيره هو للنبوءة الذى أشرنا إليه منذ قليل، يقول مباشرة: "لهذا السبب مازلت أروح هنا و هناك باحثاً وفاحصاً، بحسب كلمة الإله، المواطنين أهل هذه المدينة والغرباء، حينما أعتقد أن أحداً منهم حكيم. أما حينما لا يبدو لى أنه كذلك، فإنى أظهر له، مدافعا عن كلمة الإله، أنه ليس حكيما" (٢٣ب). هذا هو أول نص نجده فى "الدفاع" عن مضمون البعثة السقراطية، وفيه قسمان رئيسيان: الأول قسم الفحص، والثانى قسم "التطهير"، إذا شئنا إعطاء هذا الاسم لنشاط سقراط الرامى إلى البرهنة على أن المتحدثين معه ليسوا علماء وإنما هم مدعون للمعرفة وحسب، وإلى إقناعهم بذلك، فإن هم امتنعوا تخلصوا من وهم أساسى ومن الجهل الذى كان منعهم من إدراك الحكمة الحقيقية. ولكن الجدير بالإشارة هو أن سقراط أخذ على نفسه مسئولية فضح جهل المتحدثين معه باعتباره "مدافعا عن الإله" أو "مساعداً له". و هذه نقطة من الأهمية بمكان، لأنها تشير إلى الأساس الإلهى (ولعل هذا التعبير أن يكون أدق من قولنا "الأساس الدينى") للبعثة السقراطية. من أين أتى سقراط بهذا الأساس؟ واضح أنه ليس له من أصل فى الديانة التقليدية التى يقف منها سقراط موقف شك واضح كما رأينا فى "أوطيفرون". ومن جهة أخرى فإن الإله لم يكلف سقراط بأى تكليف، كذلك فإنه ليس فى صيغة النبوءة (ليس هناك بين اليونان من هو أحكم من سقراط)، ولا فى تفسير سقراط نفسه لها (الحكيم هو من تحقق مثل سقراط أن حكمته لا تساوى شيئا بالقياس إلى الحقيقة)، أى إلزام كان، لا باستخراج نتائج ذلك فيما يخص الآخرين، ولا بالسعى والسلوك الفعليين لإقناع الآخرين بمضمون ذلك التفسير. كذلك فإن سقراط نفسه يدرك أن اسمه لم يأت على لسان الكاهنة إلا كمثال، كحالة خاصة. لكل هذه الاعتبارات، فليس هناك فى كلام الإله ولا حتى فى تفسير سقراط له أى إلزام أو أى تكليف، فماذا حدث إذن؟ الذى حدث هو أن سقراط أخذ لنفسه أخذاً تكليفاً بنقل مضمون النبوءة إلى الآخرين، وفحصهم على أساسه وبيان جهلهم. وهذه نقلة عظيمة، أو هى قفزة من قصد الإله إلى النتائج التى استخرجها سقراط فيما يخص الآخرين.

فسقراط يعتبر نفسه من الآن "فى خدمة الإله". وهذا يغير من أشياء كثيرة، وأول ما يتغير هو طبيعة تفلسفه الفاحص. فهو لم يعد، كما كان الحال قبل فهم سقراط لمغزى النبوءة (٢١ ب – ٢٢هـ)، الفحص من أجل الفحص، أى من أجل

http://nj180degree.com

تقرير إن كان الشخص موضع الفحص يعلم أم هو جاهل، ولم يعد ذلك لمجرد رغبة من سقراط، بل أصبح، بعد إدراك طبيعة النبوءة، أو تفسيرها، تنفيذاً لأمر إلهى ومن أجل هدف آخر يعلو فى قيمته على الفحص. وتتغير كذلك فكرة سقراط عن نفسه. فهو لم يعد ذلك السائل الخالد، ثرثاراً كبقية الثرثارين، وكانوا كثرة فى بلاد اليونان، بل أصبح مبعوث الإله، أو على حد تعبير "الدفاع" "هديته" أو "هبته" إلى الأثينيين (٣٠هـ). وأية هبة هو! إنه كالمهماز الذى يلسع جواداً عظيماً نبيلاً، هو أثينا، والذى يجعله عظَمه نفسه يبطئ على طريق الفضيلة. ومن الدلائل، فى نظر سقراط، على أنه رجل العناية الإلهية أرسلته إلى الأثينيين، هو أنه بادر، ما أن أدرك مقصد الإله، ووضع نفسه فى خدمته وكرس كل وقته لهذه الخدمة (٣١أ – ب). ودليل آخر يتبع السابق هو أنه أهمل كل شئونه الخاصة من أجل هذا (انظر ٣١ جـ). وما دام الإله هو صاحب الأمر، فإن سقراط سيظل مؤدياً واجبه حتى النهاية ومهما تكن الأخطار: "أيها الأثينيون، إنى أعزكم وأحبكم، ولكنى سأطيع الإله أكثر من أن أطيعكـم" (٢٩د). بل إن سقراط سيتابع مهمته فى الآخرة نفسها (٤١ب – جـ). والأصل فى هذا كله كما قلنا هو طاعة الإله (٢٧هـ).

قلنا إن مضمون البعثة السقراطية فيه قسمان: قسم الفحص وقسم "الدعوة". الدعوة إلى ماذا؟ الصفحات التى تخبرنا عن ذلك على الخصوص هى الصفحات ٢٨ د – ٣٠جـ، ولا عجب أن تكون هى الصفحات الرئيسية فى كل المحاورة أهمية ومركزا مادياً (فهى تقع فى وسط المحاورة التى تمتد من ١٧ أ إلى ٤٢أ). يقول سقراط بعد النص الذى أوردناه للفور مباشرة: "وطالما بقى فىّ نفَس، فلن أتوقف عن التفلسف وعن موعظتكم" (٢٩د). وبعد سطور من ذلك يحدد على الدقة مضمون هذا الوعظ، فهو سيقول لكل من سيقابله من الأثينيين: "ألا تخجل من أنك تعنى بكيف تحوز أكبر ثروة ممكنة، وبالشهرة وبألوان التكريم، بينما لا تعنى بالفكر ولا بالحقيقة ولا بالنفس وكيف تصير أفضل؟" (٢٩د – هـ). فهناك نوعان من القيم: قيم متعلقة بالجسد وأخرى متعلقة بالنفس وبالعقل وبالحقيقة، ودعوة سقراط هى دعوة إلى العناية بهذه القيم وتقديمها على القيم الأخرى. وهذا التعارض بين النفس والجسد هو الذى نراه مرة أخرى فى ٣٠أ – ب: "ما أفعله ليس إلا محاولة إقناعكم شبابا وشيوخا بألا تعنوا بأجسامكم وثرواتكم فوق عنايتكم وبنفس الحماس بالنفس من أجل أن تصير أحسن". فالنفس هى مركز الفضيلة (arete) أو

http://nj180degree.com

القيمة الأخلاقية بصفة عامة، أما الجسد فهو مركز القيمة "الخارجية" التى مظهرها الأكبر هو "المال". وعند سقراط فإن للفضيلة الأسبقية المطلقة: "الفضيلة لا تأتى من الثروة، وإنما بالفضيلة تصير الثروة وكل شيء آخر خيرات للبشر، سواء فى حياتهم الخاصة أو العامة" (٣٠أ – ب). وهو يعود إلى الحديث عن الفضيلة فى ٣٨ أ، وعلى الأخص فى ٣٦جـ حيث يحدد ما يقصده بالعناية بالنفس: فهو قد أخذ فى إقناع كل شخص "بألا يقدم العناية بأى شى من شئونه على العناية بنفسه من أجل أن يصير أفضل أخلاقيا وعقليا"(٤).

هذا هو مضمون البعثة السقراطية، وهذا هو "الموضع" أو "المركز" الذى وضعه فيه الإله (٢٨هـ)، والذى ارتضاه هو لنفسه لأنه "الأفضل" (٢٨د).

ونكون قد أجملنا الإشارة إلى النقاط الرئيسية لهذا الموضوع إذا أضفنا أن نشاط البعثة، وجانب الدعوة منها على وجه أخص، نشاط فردى وليس جماعيا، عام وليس خاصا. ذلك أن سقراط لم يحاول قط أن يقوم برسالته على منابر جمعيات الأثينيين السياسية، بل كان يلتقى بهم ويتحاور معهم فرداً فرداً، "كأب أو كأخ أكبر" (٣١ب). ومن جهة أخرى، فإنه كان يقوم بها مع الجميع دون تمييز بين غنى وفقير، شاب أو شيخ (٣٣ب)، أو حتى بين مواطن أثينى وغريب من غير أثينا. أخيراً، وهذا أمر يؤكد عليه سقراط كثيراً، فإنه لم يطلب قط أجراً عن محادثاته (٣١ب – جـ، ٣٣ب).

☆☆☆☆☆

هذا هو سقراط، على الأقل فى نظر نفسه (وفى نظر أفلاطون مؤلف "الدفاع"). ولكن من هو فى نظر من أمامه؟ ومن هم على الدقة هؤلاء الذين يقف أمامهم؟ هناك بالطبع متهموه وقضاته. ومتهموه ثلاثة: أنيتوس وموليتوس ولوكون، وأقلهم فى الأهمية لوكون الذى لا يذكره إلا مرة واحدة (٢٣ هـ)، ونحن لا نعرف عنه شيئاً إلا أنه كان خطيباً. ولعل مهمته الحقيقية كانت تأييد موليتوس أثناء تقديم الاتهام باستخدام الأساليب والحيل الخطابية التى كانت سائدة حينذاك، ولعل خطبته هى التى يشير إليها سقراط فى أول "الدفاع" حين يقول إن خطب متهميه أنسته من هو.

(4) beltistos kai phronimôtatos.

http://nj180degree.com

فالأغلب أن هذا ينطبق على خطبة لوكون وعلى خطبة أنيتوس كذلك، ولكن ليس على خطبة مليتوس الذى لا يبدو ذا خطر شديد، وذلك إذا اعتقدنا سقراط نفسه على الأقل. ومليتوس هو مقدم الإدعاء الرسمى كما يظهر (١٩ب). ومن المحتمل أنه قدم ادعاءه على أساس أنه كان مدفوعاً إلى رفعه بدافع من غيرته على المدينة ومن "حبه لها"، كما يبدو أنه قال نصاً، ويستطيع القارئ أن يكوّن فكرة عنه بقراءة وصف سقراط له فى محاورة "أوطيفرون" (٢ب وما بعدها).

ولكن أهم الثلاثة كان بلا شك أنيتوس، وليس مصادفة أن يكون اسمه هو أول أسماء الثلاثة ظهوراً فى "الدفاع" (١٨ب)، ومن المحتمل أن يكون هو الذى دفع مليتوس إلى رفع الإدعاء، فسقراط يقول للأثينيين: "انصتوا إلى أنيتوس أو لا تنصتوا إليه ..." (٢٩جـ)، وهو يقول: "أنيتوس ومن معه" (١٨ب). ولعل سقراط يشير إلى ضآلة دور مليتوس وخطورة أنيتوس معاً حين يقول إنه لولا معونة أنيتوس ولوكون اللذين صعدا إلى المنصة لاتهام سقراط لما نال إدعاء مليتوس خُمس أصوات المحكمة، ولكان اضطر إلى دفع ألف دراخمة كغرامة (٣٦أ - ب). ونحن نعرف أنيتوس من مصادر أخرى غير "الدفاع" (ويستطيع القارئ أن يرجع فى هذا الصدد إلى محاورة "مينون" لأفلاطون، ٩٠ب وما بعدها)، وكان من زعماء الحزب الديمقراطى وقت المحاكمة. ويبدو أنه أراد أن يؤكد صبغة الادعاء العامة، فأشرك معه مليتوس ممثلا لحقد الشعراء على سقراط ولوكون ممثلا لسخط الخطباء، وكان هو نفسه متحدثاً باسم الصناع ورجال السياسة (٢٣هـ - ٢٤أ)، وهكذا تكون معظم فئات الشعب ممثلة فى الادعاء على سقراط.

بعد متهميه هؤلاء، كان هناك أمام سقراط قضاته، ولم يكونوا أفراداً قلائل، بل كانوا خمسمائة (أو خمسمائة وواحداً). ففى كل عام كان يختار بالقرعة ستة آلاف مواطن لكى يقوموا بإصدار الأحكام القضائية، وكانوا يوزعون على عشر محاكم كل منها تتألف من ستمائة قاض ولكل منها اختصاصات معينة، وأمام إحدى هذه المحاكم العشر حوكم سقراط (ويبدو أن حوالى مائة من أعضائها لم يحضروا الجلسة). ولنا أن نتصور أن هؤلاء الخمسمائة ينتمون إلى كل الطبقات، بل هم "الشعب" فعلا، ليس فقط لأن تجمهراً عظيم العدد كهذا يستحق اسم "الشعب"، بل وكذلك لأن السلطة التى فى أيديهم هى السلطة الشعبية بالفعل. هذه المحكمة

http://nj180degree.com

الشعبية، وتأليفها هو على ما هو عليه، تضطر صاحب الإدعاء والمدعى عليه معاً في العادة إلى استخدام أساليب خاصة للتأثير عليها، ومن هنا كان تطور فن الخطابة في ذلك العصر، في قسمة القضائى على الأقل. ويبدو أن خطب الادعاء كانت، في مجموعها، ناجحة، وعلى الخصوص خطبتى أنيتوس ولوكون. أما سقراط فإنه لم يكن معتاداً على الأسلوب القضائى فى الحديث، فهو، فيما يقول، لم يدخل محكمة إلا هذه المرة (١٧ د)، ومن جهة أخرى فإن طريقة سقراط فى التفلسف كانت تخالف كل المخالفة أية طريقة "جماعية" فى "التفاهم" (omologia)، ومن هنا فإن موقف سقراط كان صعبا.

وفى الحق فإن المحاكمة "جماعية" و "شعبية" بمعنى آخر كذلك، لأن سقراط لم يكن ماثلا أمام متهميه وقضاته وحسب، بل كان هناك كذلك على التأكيد جمهور كبير من المشاهدين، حتى أنه يمكن أن نقول إن سقراط، وهو بمفرده وحيداً أو يكاد، كان يجابه الشعب بأجمعه. ونستطيع أن نتصور أن عدد هؤلاء المشاهدين كان كبيراً، لأنه بالإضافة إلى أن الأثينيين كانوا يتمتعون بصفة عامة بأوقات فراغ طويلة كانوا يقضونها فى التسكع وفى الثرثرة أو الذهاب إلى المسرح أو الاشتراك فى الاجتماعات العامة، ومن هذا القبيل مشاهدة المحاكمات، فإن محاكمة سقراط كانت من غير شك حدثاً هاماً فى أثينا لعلها جذبت مئات المشاهدين، على الأقل بسبب شخصية المتهم. ومن ذا الذى لا يستطيع أن يتصور أن مثل هذا الجمهور، وهو فى الحق "الشعب" نفسه، لن يؤثر على مجرى المحاكمة، وهو من غير شك قد أثر عليها على الأقل بصياحه، خاصة وأن سقراط يوسع من دائرة أصحاب الافتراءات عليه حتى تشمل الشعب كله فعلا (انظر مثلا ١٨د، وكذلك ٢٩جـ وغير ذلك). وهكذا فإننا أمام موقف غريب: ذلك أن من يقف ضد سقراط ليس فقط قضاته ومتهموه الجدد، ولكن كذلك متهموه القدامى وأصحاب الافتراءات عليه (فيما يقول هو)، وهم الشعب الأثينى فى مجموعة الذى قبل هذه الافتراءات واعتبرها حقيقة وتناقلها بين صفوفه على مر سنين طويلة. وقد أشرنا من قبل إلى أن قضاة سقراط الخمسمائة ما هم إلا جزء ممثل للشعب كله. وهكذا، باختصار، فإن كل من أمام سقراط متهم له. ونفهم على هذا الضوء أن سقراط يحتاج ليس فقط إلى تفنيد اتهامات مليتوس، بل وكذلك إلى نزع الفكرة التى كونها الشعب (قضاة ومشاهدين) عنه. لهذا فإنه ليس عجبا أن نرى سقراط (١٨هـ - ١٩أ)

http://nj180degree.com

يتوجه أولا إلى الشعب مدافعاً عن نفسه ضد اتهاماته (التى يسميها بالافتراءات)، وذلك قبل أن يلتفت إلى متهمه الرسمى ليناقش بالتفصيل اتهاماته (٢٤جـ وما بعدها). فالإفتراءات الأولى أصل والإدعاءات الأخيرة فرع، فلولا الأولى لما كانت الثانية (١٩أ - ب).

☆☆☆☆☆

والآن، من هو سقراط فى نظر متهميه القدامى والمحدثين؟ لنبدأ أولا بصورة سقراط عند الشعب. هذه الصورة يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة: أنه "حكيم" (sophos)، بمعنى العالم المشتغل بأمور المعرفة (انظر ١٨ب ، ٢٠ د، ٢٧هـ، ٣٤هـ). وينتج عن هذه الصفة، أو هذه "السمعة"، أنه مهما ادعى سقراط الجهل، ومهما ادعى أنه يقتصر على سؤال من يتحدث معهم ليفحصهم، فإن الجمهور مقتنع أنه يعلم، وأنه يعرف طبيعة المسائل التى يتناقش حولها (٢٣ أ)، وهو ما ينكره سقراط. وهو يحدد مضمون العلم الذى ينسبه إليه الشعب أو ميدانه على الأقل: التأمل فى الأشياء العلوية والبحث فيما هو فى باطن الأرض، وإلى جانب ذلك مهارة خاصة (أو كما يقال اليوم "التخصص") فى قلب الحجج الضعيفة إلى حجج قوية (١٨ ب). وندرك هنا على الفور أن الجمهور ينسب إليه كل ما يعرفه عن علماء العصر، سواء أكانوا من الباحثين فى الطبيعة الفوقية أو التحتية، أى الفلاسفة الطبيعيين، أم كانوا من معلمى المحاجاة أو البرهنة بصفة عامة، وهم من سيسمون بالسفسطائيين. وقد نتج عن نسبة ميدان البحث الأول، الطبيعة، إلى سقراط، أن لصقت به على الفور سمعة عدم احترام الآلهة، بل إنكار وجودهم (١٨ جـ ، ٢٦جـ). ولا شك أن خلط مليتوس بين أنكساجوراس وسقراط، فيما يخص اعتبار أن الشمس والقمر ليسا إلهين، كان موجودا كذلك لدى الكثيرين من الأثينيين الذين ليس لهم من مصادر ممكنة للمعرفة إلا ما "يقال إن "... ومن السهل فى هذا المجال نقل آراء علم كبير من أعلام "الحكمة" كأنكساجوراس ونسبتها إلى غيره.

وسقراط لا يبحث ويفكر وحسب، إنما هو، فى نظر العامة، يسعى أيضا إلى جعل الآخرين على شاكلته، بعبارة أخرى هو يعلم الشباب آراءه "الفاسدة". وياليت سقراط توقف عند هذا، إنما الشعب الأثينى يعتقد أن سقراط بتصيده المواطنين وسؤالهم وإحراجهم وجعلهم أضحوكة الشباب الذى يجرى وراءه حيثما ذهب، إنما

http://nj180degree.com

"يتهكم" عليهم جميعاً (٣٨أ). وبعض إشارات سقراط غير المباشرة تؤكد هذا (مثلا ٢٠د: "ربما يبدو لبعضكم أننى أمزح، ولكن ها هى الحقيقة كاملة"). ولعله مما يؤكد أن مسألة "الحكمة" ومسألة "التهكم" تقعان فى قلب الصورة الشعبية عن سقراط أن الجمهور يصيح عند تعرض سقراط لمسألة إنكاره أنه حكيم (٢٠هـ)، وعندما أخذ يتناقش مع مليتوس "على طريقته المعهودة"، أى على طريقة الأسئلة والأجوبة، والتى كان يستطيع بها إحراج المتحدثين معه (٢٧ب).

ما هو مدى مسئولية الشاعر الكوميدى الكبير عن أرستوفانيز عن هذه الصورة؟ ذلك أن سقراط يشير إليه مرتين، إحداهما بالاسم (١٨د ، ١٩ب). بل هو يأخذ "صيغة" الاتهام القديمة (أى الافتراءات المنتشرة ضده منذ مدة طويلة) من مسرحية أرستوفانيز المسماة "بالسحب": "سقراط يعنى عناية كبرى بالبحث فيما تحت الأرض وما فى السماء، ويقلب القضية الضعيفة قضية قوية، ويعلم هذا كله للغير" (١٩ب - جـ). والحق أننا إذا رجعنا إلى نص تلك المسرحية لوجدنا أن ما يقوله أفلاطون تلخيص إلى حد كبير لما يقال ويفعل فيها. ولعل من حسن الحظ بقاء هذه المسرحية بين أيدينا، لأنها إحدى الوثائق النادرة عن شهادة هذا الشاعر الساخر. لهذا فإنه مما يفيد قارئ "الدفاع" أن نشير إلى بعض ما نجده فى تلك المسرحية عن سقراط.

بطل المسرحية مواطن أثينى ريفى تزوج من إحدى "بنات العائلات" فى المدينة، حب الترف يجرى فى دمها، وقد أنجبت له ولداً ربته على طريقتها، فكانت النتيجة بعد سنوات استنزافُ أموال الأب حتى كثر دائنوه. وفى ليلة، استيقظ فيها على خوف الصباح، لأن الصباح لا يأتى إلا بالدائنين المطالبين بديونهم وفوائدهم فى نهاية كل شهر، اهتدى إلى طريقة ينقذ بها نفسه، ألا وهى إرسال ابنه ليتعلم فى مدرسة قريبة منهم، "حيث قوم حين يتكلمون عن السماء يقنعونك أنها مخنقة، وأنها تحيط بنا وأننا فحم: هؤلاء القوم سيعلمونك، لقاء النقود، كيف تنصر كل قضية [كل قول] عدلا كانت أم ظلما" (الأبيات ٩٤ - ٩٩، لأن المسرحية بالشعر). هذه "النفوس الحكيمة" تكاد تهمل أجسادها كل الإهمال، فوجوههم صفر وأقدامهم حافية، ومنهم سقراط وخيرفون. ويقول الأب لابنه إن عندهم نوعين من الحجج: القوية والضعيفة. وهذه الحجج الضعيفة تعرف كيف تنصر القضايا غير العادلة، وعليه أن يتعلم طريقة المحاجاة الظالمة حتى يستطيع أن يخلص أبيه من

http://nj180degree.com

ديونه. ولكن الابن يرفض بادئ الأمر، فيضطر الأب إلى الذهاب بنفسه إلى "المفكر" (على وزن مفعل، وهى ترجمة دقيقة للكلمة اليونانية التى ابتدعها الشاعر الساخر) ليتعلم هو ذلك. وهناك يجد أحد تابعى سقراط الذى يخبره أن أستاذه وجد طريقة لقياس قفزة البرغوث، ويعلم بعد ذلك كيف أنهم يبحثون فى أمور السماء وما تحت الأرض حتى "طارطاروس" (وهو نهر تحتى)، ثم يعثر أخيراً على سقراط رئيس هذه المدرسة معلقاً فى سلة فى الهواء، من أجل أن يعلق عقله ويجعل فكره يختلط بالهواء المماثل لطبيعته (٢٢٧ - ٢٣٠). وسقراط هذا لا يعترف بالآلهة التى يريد رجلنا أن يقسم بها، إنما آلهته هى السحب (٢٤٧ - ٢٥٣). وهو لا يعرف من هو زيوس، فضلا عن أن يقول إن كان إلهاً أم لا (٣٦٦). فسقراط فى هذه المسرحية هو باختصار "الذى يجرؤ على كل شىء" (٣٧٥).

ويثار الآن هذا السؤال: هل كان أرستوفانيز هو الذى خلق وأشاع هذه الصورة عن سقراط؟ أم أنه وجدها عند الآخرين ثم بلورها وأعاد صياغتها بفن رجل المسرح؟ نحن أميل إلى الإجابة الثانية. فمن المحتمل أن سقراط كان شخصية معروفة، ومعروفة بما ينسب إليها من الآراء المشار إليها، وذلك قبل ظهور مسرحية أرستوفانيز، فلما جاء هذا الأخير أضاف إلى سماتها المعروفة عند الجمهور، عدلا كان ذلك أم ظلماً، بعض التفاصيل التى تناسب أغراضه الفنية. ومع ذلك فإنه يمكن اعتبار مسرحية "السحب" أحد مصادر الصورة الشعبية عن سقراط، وليس فقط مجرد انعكاس لها. ذلك أنها أعادت صياغتها ونشرتها بين جمهور عريض جداً، فكأنها خلقتها من جديد. (ونشير إلى أن هذه المسرحية مثلت مرتين لنيل جائزة، لأنها لم تنل فى العام الأول الذى مثلت فيه إلا المكان الثالث، فقدمها الشاعر مرة ثانية فى عام آخر).

ولو أتينا الآن إلى صورته عند مقدمى الادعاء، لوجدناها تنطبق فى كثير من نقاطها مع الصورة السابقة، مع التعديل والتنظيم. من ذلك مثلاً أن تهمة "قلب القضية الضعيفة إلى قضية قوية" تختفى، أو على الأقل هى لا تحتل مكانا بارزا فى الصورة التى يقدمها مليتوس فى ادعائه ضد سقراط، وإن كانت هناك إشارة إليها حين يحذر الخطباء الثلاثة القضاة من "مهارة" سقراط فى الكلام وأنه قادر على خداعهم. من جهة أخرى، فإننا نجد فى الصورة الجديدة عن سقراط تأكيدا

http://nj180degree.com

على مسألة إفساد الشباب، ويضيف مليتوس أن سقراط يقصد إلى ذلك قصدا (٢٥د ، وانظر ٣٧أ). وفى نفس الوقت يُربط هذا الاتهام بالاتهام الآخر، وهو عدم الاعتراف بآلهة المدينة، فهو يفسد الشباب بتعليمهم إنكار هذه الآلهة. ولكن هناك جديداً آخر فى هذه الصورة عن سقراط. ذلك أننا لا نجد إشارة عند أرستوفانيز إلى "الدايمون" السقراطى أو الجنى الذى يتمثل له على شكل هاتف باطنى، والذى يشير إليه الإدعاء حينما يضيف اتهاما ثالثا، وهو "إحلال آلهة جديدة" محل آلهة أثينا. والحق أن المتتبع لإشارات مليتوس يخيل إليه أن سقراط فى نظره، وفى نظر أصدقائه ونظر الكثيرين من المعاصرين، وباء خطير ينبغى التخلص منه بأى ثمن. وهذا يؤكد قول سقراط: "عندما قلت لكم من قبل إن كثيرين يكنون لى أحقاداً عميقة، فاعلموا أنى قلت لكم الحقيقة" (٢٨أ).

هذا هو سقراط وهؤلاء هم من يقفون أمامه. والآن، كيف دارت المحاكمة؟ بعبارة أخرى: ما هى طبيعة التفاعل الذى نتج عن التقاء عناصر الموقف التى وصفناها، وماذا كانت على الأخص، وهذا هو موضوع "الدفاع"، ردود الفعل عند سقراط بإزاء اتهام خصومه؟ وماذا كان الدور الذى قام به سقراط، وكيف قام به؟ وكيف انتهت المواجهة إلى نهايتها "التراجيدية"؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه فيما يلى.

لا شك أنه سبق دفاع سقراط إعلان الادعاء من جهة وخطبة متهمه الرسمى مليتوس ثم خطبتان أخريان من أنيتوس، المحرك الحقيقى للأمر كله، ومن لوكون، ثم دعت المحكمة سقراط إلى الدفاع عن نفسه. وسقراط، كما يقول هو، لم يحضّـر دفاعه مكتوباً، ويقال إنه رفض عرضاً لكاتب خطب شهير (لوسياس) ليكتب له دفاعاً على الطريقة المعتادة، ورد بأنه قضى حياته كلها، وهى عنده حياة بحسب الفضيلة، فى تحضيره. وأياً ما كان الأمر فلابد أن سقراط قد فكر فى دفاعه طويلاً قبل بدء المحاكمة، واستقر على الطريقة وعلى النقاط الأساسية التى سيبرزها.

وتركيب "الدفاع" كما يقدمه أفلاطون تركيب بسيط، ففيه ثلاثة أقسام: رد سقراط على الاتهامات (١٧أ – ٣٥ د)، رأيه فى العقوبة التى يستحقها (٣٥هـ – ٣٨ب)، وهذان القسمان هما دفاعه على وجه التحديد، ولكن هناك قسما ثالثا لكلمات سقراط بعد إعلان الحكم عليه بالإعدام (٣٨جـ – ٤٢أ)، ويشكك البعض فى أن يكون سقراط قد تكلم بالفعل مرة ثالثة بعد إدانته بالإعدام.

http://nj180degree.com

والقسم الأول هو أهمها بالطبع، وأطولها بالتالى. وفيه أجزاء: مقدمة عامة عن طريقته فى الكلام (١٧أ – ١٨أ)، أن المتهمين له قدامى وجدد (١٨أ – هـ)، عرض للتهم القديمة (١٩أ – جـ)، رده عليها (١٩جـ – ٢٤ب)، عرض الاتهامات الجديدة (٢٤ب – جـ)، رده عليها أثناء حوار له مع مليتوس (٢٤جـ – ٢٨أ)، ثم تعقيب عام عن نوع الحياة الذى اختاره سقراط ودفاعه عنه (٢٨أ – ٣٤ب)، وأخيراً تبرير عدم استخدامه للأساليب المتبعة فى مثل هذه المواقف لاستعطاف القضاة (٣٤ ب – ٣٥د).

وقد أشرنا، وسنشير، إلى معظم نقاط هذا القسم، فلا داعى إذن لتكرار الحديث عنها هنا، وإنما نريد الآن أن نتحدث عن رد سقراط على الاتهامات التى احتواها إدعاء مليتوس عليه، وهى أولا إفساد الشباب، ثانياً عدم الاعتراف بآلهة أثينا الرسمية، وثالثاً إدخال آلهة جديدة.

ويبدو أن سقراط أخذ بمبدأ أن الهجوم هو أفضل طرق الدفاع، فنحن نجده يبدأ بأن يعلن: "مليتوس يزعم أننى أقترف ذنباً بإفساد الشباب، ولكنى أقول أنا، أيها الأثينيون، أنه هو الذى يقترف ذنباً حين يهزل فى شأن الأشياء الجادة"، وذلك بتقديمه سقراط إلى المحاكمة بصدد أمر لا يعرف هو عنه شيئاً (٢٤جـ). وهذا يعطينا اللحن الأساسى الذى سيلعب عليه سقراط: ألا وهو دفع اتهام مليتوس "بعدم اختصاصه" فى مسألة إفساد الشباب. ذلك أنه من الأفكار الرئيسية التى نجدها فى محاورات أفلاطون الأولى، ومن المؤكد أنها من أصل سقراطى، فكرة "رجل الاختصاص"، فالمختص وحده هو صاحب الحق فى إصدار الحكم والمشورة، والمختص هو "من يعلم"، ومن يعلم يعلم كل شىء عن موضوع تخصصه، بما فى ذلك الشىء وضده، فالماهر فى الصحة مثلاً ينبغى أن يكون بالضرورة ماهراً فى معرفة المرض. ومليتوس يدعى أن سقراط يفسد الشباب، مما يفترض بالضرورة أنه يعلم كيف يصير الشباب أفضل ومن يجعلهم أحسن. فمن هم هؤلاء؟ لا يجد مليتوس جواباً عن هذا السؤال، وحينما يحاصره سقراط يلجأ إلى الإجابة بأنها "القوانين"، ولكن سقراط إنما يسأله عن "البشر" الذين يجعلون الشباب أفضل، فيجيب مليتوس إجابة "ماهرة" بأن من يصلح الشباب هم هؤلاء القضاة الذين أمام سقراط ورجال السياسة بل وكل الأثينيين. "ما عداى أنا؟"، يسأله سقراط، "نعم، ما

http://nj180degree.com

عداك"، يجيبه خصمه. وما أسهل أن يبين سقراط بعد هذا "لا معقولية" مثل هذا الموقف: فكيف ينجح سقراط بمفرده فى إفساد الشباب الأثينى بينما كل المواطنين الآخرين يساهمون فى إصلاحهم؟ وما هذا إلا دليل على أن مليتوس لم يهتم ولم يعن بأمر الشباب وبمسألة إفساده وإصلاحه، فأنّى له وحاله هذه أن يتهم سقراط بتهمة إفساد الشباب؟

بعد "اللامعقولية" يبرز سقراط "تناقض" مليتوس. فإذا هو وافق على أن أحداً لا يريد لنفسه أن يضره من يصاحبهم، وإذا استمر فى ادعائه أن سقراط يفسد الشباب المرافق له، بل ويفسده قصداً، أفلن تكون النتيجة أن سقراط نفسه سيُضر؟ ولكنا كنا اتفقنا أن أحداً لا يريد الضر لنفسه. إذن فمليتوس متناقض فى دعواه (٢٥جـ - هـ). ولكن هذه النتيجة نفسها تتضمن أنه على فرض أن سقراط يفسد الشباب، فإن ذلك لا يمكن أن يكون إلا رغم إرادته، وإذن لا تكون المحكمة هى مكان إصلاح سقراط ووضعه على الطريق المستقيم، بل كان يجب على مليتوس أن يأخذه لينبهه إلى أخطائه وأن يعلمه ما هو الصراط السوى، ولكنه تجنب دائما الدخول فى نقاش معه.

وكيف يفسد سقراط الشباب؟ بتعليمهم عدم الإيمان بالآلهة التى تعبدها المدينة وإحلال آلهة أخرى محلها، يجيب مليتوس. وينجح سقراط فى جعل مليتوس يغير من اتهامه ليحل محله اتهاما آخر ظن أنه سيكون أكثر خطرا على سقراط، وهو عدم الإيمان بأية آلهة كانت (٢٦جـ، هـ). ولكن تناقضه هنا واضح. فقد ذكر أن سقراط يؤمن بآلهة جديدة، إذن فهو يؤمن على الأقل ببعض الآلهة. من جهة أخرى، يوقع سقراط خصمه فى حبائله مرة جديدة حين يستدرجه، وهو المندفع الذى لا ينتبه إلى متضمنات ما يقول، ليدعى أن سقراط يعتقد أن الشمس حجر وأن القمر تراب، على حين أنه من المعروف أن هذه آراء أنكسجوراس الفيلسوف صديق بيريكليز حاكم أثينا الشهير، ولم يكن يمكن لسقراط أن ينسب هذه الآراء إلى نفسه لأنها معروفة المصدر، وخاصة "لغرابتها" وبعدها عن المألوف، وكان من الممكن شراء كتاب أنكساجوراس بثمن قليل.

هذا هو رد سقراط. والمهم الان هو التأكيد على بعض طرائقه المعهودة التى استخدمها فى رده هذا. فهو أولا يستخدم منهج الأسئلة والأجوبة، وهو يتتبع متضمنات كل قول، وهو يركز على التناقض الموجود إما بين قضية ونتائجها أو

http://nj180degree.com

بين قضيتين يقبلهما الخصم، وهو يستخدم مفهوم الاختصاص الذى أشرنا إليه. إذن هو يستخدم فى الدفاع عن نفسه نفس الأسلوب الذى جلب عليه كل هذا العداء. ولكننا إذا دققنا النظر فى الأمر لوجدنا أن سقراط هنا متسق مع نفسه كل الاتساق. وموقفه هذا يتضمن إيماناً بأن "الإقناع" أو الاتفاق ممكن عن طريق استخدام العقل. فمجمل ما يفعله سقراط فى الحق إنما هو إبراز تناقضات مليتوس، تاركاً للقضاة مهمة استخراج نتائج هذا. أخيراً، نشير إلى أن سقراط يستخدم لبعض الوقت أسلوبا "خطابياً" للرد على خصمه، فهو لا يبدأ فقط بالهجوم عليه، بل هو يحاول كذلك التقليل من شأنه والسخرية منه، بالقول، مثلاً، إن مليتوس أراد لا شك أن يمزح وأن يختبر قدرة سقراط على فك غوامض اتهامه الذى يصبح أشبه باللغز، والذى سيقول: "فلنر إن كان سقراط ذلك الحكيم سيدرك أننى أمزح وأننى أناقض نفسى، أم أننى سأوقع به وبكل المستمعين الآخرين"(٢٧أ). ويجب أن نلاحظ الإشارة فى هذا النص إلى التناقض.

ومن الممكن جداً أن يكون سقراط قد أحرز برده هذا انتصاراً "منطقياً" على خصمه، بل إنه لمن المحتمل أن يكون قد كسب بكلماته هذه معظم الأصوات التى ستكون معه لحظة الحكم، ولكن الموقف يتغير تغيرا شديداً فى القسم الذى يلى (٢٨أ - ٣٤ب) والمخصص لعرض حياة سقراط والدفاع عنها. ذلك أن سقراط لا يدافع عن حياته وحسب، وإنما هو بنفس الضربة يهاجم الأثينيين، وهنا يوضع هذا السؤال: إلى أى حد كان فى موقف سقراط تحدياً واستثارة للقضاة والجمهور؟ وهذا السؤال: إلى أى حد يعتبر سقراط إذن مسئولاً عن الحكم الذى صدر بإدانته؟ أو بعبارة أخرى: إلى أى حد يمكن القول أن سقراط "ابتغى" إدانته وسعى إليها سعياً؟ ولكنها، كما هو واضح، أسئلة ذات خطر.

لنضع أنفسنا موضع القضاة، فكيف سنرى سقراط؟ سنراه رجلاً يملك من الصلف ويبدى منه الشىء الكثير، وفيه أيضاً الكثير من العناد. هو رجل يرفض أن يدخل فى "القطيع" ليكون كباقى الناس، بل يريد ويصر أن يبقى كما هو، أن "يكون نفسه". وتظهر هذه الإرادة منذ المبدأ حين يعلن أنه سيتكلم على طريقته لا على طريقة المحاكم. وهذا يعنى، من وجهة نظر القضاة، أنه يرفض أن ينثنى أمامهم ويطلب منهم أن ينثنوا هم أمامه وأمام طرائقه الخاصة. وسقراط يدرك ما

http://nj180degree.com

فى هذا من مضايقة لهم، ولهذا فهو يطلب منهم ألا "يدهشوا" وألا "يصيحوا من أجل هذا" (١٧جـ - د). وكان محقا فى توقعه، فيما يبدو، لأنه يعود، فى وسط حواره مع مليتوس على الطريقة السقراطية، ليذكرهم بطلبه هذا وليطلب منهم من جديد ألا يصيحوا أو يثوروا إن هو قدم دفاعه وحججه "على طريقته المعهودة"، وهى هنا طريقة السؤال والجواب. ومن المحتمل أن يكون بعض القضاة قد صدموا من لهجة سقراط حين يقول: "فلأدافع عن نفسى محاولا، أيها الاثينيون، أن أنزع من صدوركم تلك الفرية التى حملتموها مدى أعوام طويلة" (١٨هـ)، وحين يضيف أنهم هم الذين سيجنون بعض الفائدة من ذلك! وإذا كان سقراط يقف هنا موقف الطبيب، فإن هذا نفسه يعنى كأن من أمامه مرضى. ورغم هذا فإن لهجة سقراط فى الصفحات الأولى من المحاورة معقولة، بل هو يحاول فيها أن يأخذ القضاة إلى صفه حين يهاجم هؤلاء المعلمين الغرباء الذين يأتون إلى أثينا ليقنعوا الشباب "بترك صحبة مواطنيهم" ومتابعتهم هم، فسقراط هنا يقف موقف المدافع عن المدينة، وبالتالى عن المواطنين، أمام الغزو "الثقافى" لهؤلاء الغرباء من المدن اليونانية الأخرى (٢٠أ).

ولكن ضيق القضاة والجمهور لابد أنه قد بدأ يظهر عند كلام سقراط (٢٠هـ وما بعدها) عن أسئلته الدائمة التى ما فتىء يوجهها إلى أهل المدينة من كل ضرب، والتى توقعهم فى الحيرة أو تجعلهم موضع سخرية المستمعين، وما من شك أن معظم القضاة قد خبروا بالفعل الوقع المؤلم الذى تركته فى نفوسهم أحاديث سقراط معهم. إذن هى الذكريات المريرة تبدأ فى الصعود (ويمكن أن نتصور قلوب القضاة كخزان ماء يبدأ شيئاً فشيئاً فى الامتلاء حتى يفيض فى النهاية ويغرق ما حوله)، وقد يزيد من مرارتها أن سقراط يقدم لكلامه عن هذا الموضوع بأنه قد يكون فيه بعض التفخيم له، ولكن ذلك سيكون عن غير قصد منه بالطبع.

وإذا كان القضاة قد يتحدثون عن "مضايقة" بصدد كل السابق، فلا شك أن الكلمة التى قد تتفق مع انطباعهم عن كلام سقراط، المنسوب إليه فى ٢٨ب وما بعدها، هى كلمة "التحدى". فهو يعرض لنوع الحياة الذى اختاره لنفسه، ويقول إنه باق عليه ما دام فيه نفس، أى أنه سيظل على طريقته فى التفلسف وفى فحص الناس. ثم يقول: وحتى إذا عرضتم علىّ البراءة على ألا أفعل ذلك، فإنى رافض

http://nj180degree.com

عرضكم، لأنى أفضل طاعة الإله على طاعتكم. وتصل قمة تحديه للمدينة بأسرها فى هذا النص الهام ٢٩د – ٣٠جـ الذى يعتبر فى رأينا أهم نصوص "الدفاع" على الإطلاق (وليلاحظ القارئ أنه مسبوق باثنتى عشرة صفحة وتتبعه ما يقاربها، ولعل هذا ليس مصادفة)، والذى يلخص فيه سقراط طريقته فى الفحص ويجمل مبادئها وينهيه بهذه القمة: "برؤنى أو لا، ولكنى لن أفعل على اليقين شيئاً آخر غير هذا [التفلسف والموعظة]، حتى إن وجب علىّ أن أموت مرات عديدة" (٣٠جـ). وهل نتعجب بعد هذا إذا صاح القضاة والجمهور هنا أشد الصياح (٣٠جـ)؟ وألا نتصور أن كثيراً من الأصوات ارتفعت لتطالب برأس سقراط حتى يصمت إلى الأبد هذا المكابر؟ وما يقوله سقراط بعد ذلك على الفور لا يساهم أية مساهمة فى تهدئة المستمعين، بل هو يزيدهم ثورة عليه حين يضيف: "إنه من مصلحتكم أن تنصتوا"، وهو يكرر هكذا نغمة سبق أن لاحظناها فى ١٩أ. ولا يكفيه هذا، بل يضيف: "إنى أريد أن أقول لكم أشياء ربما جعلتكم تصرخون". وهذا ينقلنا صراحة من ميدان التحدى إلى ميدان "الإثارة" الواعية. وهل يمكن أن يسمى قوله هذا إلا إثارة: "تيقنوا أنكم إن أنتم أعدمتمونى ... فإنكم لن تضرونى أنا بقدر ما تضرون أنفسكم"؟ فهو هنا يقلب الآية قلباً بحيث يصبح من مصلحة الشعب أن يستمر سقراط فى نشاطه المتفلسف الفاحص. وعلى ضوء هذا نستطيع أن نفهم على نحو أفضل إشارتىّ سقراط (١٩أ ، ٣٠جـ) إلى "إفادة" الشعب بدفاعه. وانقلاب الآية يظهر أكثر وأكثر حين يصيح سقراط بهذه الكلمات: "ليس دفاعى من أجل نفسى ... وإنما هو من أجلكم" (٣٠د). وتضاف العجرفة إلى الإثارة حين يقول: "لن تجدوا رجلا مثلى بسهولة" (٣١أ). بل نحن نتصور أن القضاة شعروا، بعد تخطى درجات المضايقة ثم التحدى ثم الإثارة الواعية، أن دور السب جاء حين يقذف فى وجه قضاته بهذا الحكم عليهم: "قد تحكمون بإعدامى فى عجلة ... وقد تقضون البقية من حياتكم فى النوم بلا انقطاع، اللهم إلا إن أرسل الإله إليكم رجلا آخر شفقة بكم" (٣١أ). وهو لا يهاجمهم كأشخاص فقط، وإنما هو يهاجم نظامهم السياسى نفسه بأكمله: "ليس هناك من بشر قادر على إنقاذ حياته إن هو عارضكم معارضة حقيقية أنتم أو أية جمعية شعبية أخرى، وحاول منع كثير من ألوان الظلم ومخالفات القانون من أن تحدث فى المدينة" (٣١هـ، وانظر ٣٢هـ).

وبعد السب يأتى دور الاحتقار، وهو آلم لنفوس هؤلاء القضاة الذين يمثلون

http://nj180degree.com

الشعب كله وبيدهم كل السلطة: أو لا يستطيعون الزج بمن يشاؤون فى السجن أو نفيه بل وكذلك إعدامه؟ فإذا جاء سقراط ليقول لهم إنه لا يخشى الموت (٣٢د)، فإنه بهذا يلقى بأخطر ضرباته وأشدها إيلاما لهؤلاء "الأقوياء"، فهو يقول لهم فى بساطة: حتى تهديدكم بالموت لا يخيفنى، فلا تظنوا أنكم أقوياء بهذا. ويعلم الخبراء بالنفوس كم هو مؤلم لصاحب السلطة أن يكتشف ألاّ سلطة له! وهذا لا شك هو ما حدث لقضاة سقراط: فليس لهم عليه من سلطان، إنما سلطانه العقل والقيمة الأخلاقية. وهذا يجعلنا نتلمس طريق حقيقة أساسية فى الخلاف بين سقراط ومواطنيه: ذلك أنه ينتمى إلى عالم وإلى نظام متباينين أشد التباين عن عالمهم وعن نظامهم، ومن هنا كانت حتمية الاصطدام وحتمية الاختيار الفاصل بين نظامه ونظامهم. وعلى هذا الضوء، فإما هو وإما هم.

وتأتى كلمات سقراط الأخيرة (٣٤ب – ٣٥د)، التى يبرر فيها عدم لجوئه إلى التباكى وغير ذلك لاسترحام القضاة، لتحز فى نفوس القضاة شخصاً شخصاً. فهو يقارن نفسه بهم، ومعظمهم وقف لاشك أمام المحكمة شاكيا أو مشكواً منه، وجلب الكثير منهم أطفالهم وبكوا ليستجلبوا عطف القضاة. وهكذا يذكر سقراط كلا منهم بما فعل أو بما سيفعل أو بما كان يمكن أن يفعل (٣٤ب – جـ)، ومعلنا احتقاره لهذه الوسائل، وسقراط يعرف جيد المعرفة أن رفضه لها سيجعل الآخرين يثورون ضده، لأنهم فعلوا أو سيفعلون ما يقول لهم سقراط إنه من العار. وإحقاق الحق يوجب الإشارة إلى أن سقراط يضع هذا كله كفرض، بل ويتظاهر أنه لا يعتقد أن ذلك سيكون حال بعضهم (٣٤ جـ – د)، ولكن هذا ليس إلا طريقة لجأ إليها سقراط أخيراً للتخفيف من وقع هجومه، لأنه يعرف أن ذلك كان حال معظمهم بالفعل.

ولا شك أن نتيجة التصويت الأول (إجابة عن سؤال: هل سقراط مذنب أم لا؟) كانت مفاجأة للكثيرين ولسقراط نفسه، حيث إن الفرق بين المؤيدين للإدانة والمعارضين لها لم يزد على ثلاثين صوتا من بين خمسمائة صوت (أو خمسمائة وواحد). ونستطيع أن نتصور مشاعر من برأوا سقراط بعد ظهور النتيجة: فمن المحتمل أن يكونوا قد توقعوا أن ينتهى الأمر إلى فرض غرامة ما على سقراط، ولعلهم كانوا يرغبون فى أن "يساعدهم" سقراط لكى تنتهى المحاكمة بسلام. ولكن المؤكد أنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة لأن سقراط، وقد دعى لإبداء رأيه فى العقوبة

http://nj180degree.com

التى يستحقها بعد قرار الإدانة، يعلن أنه لا يستحق عقوبة ما، وإنما حقه مكافأة تليق به، وهى أن يعيش بقية حياته على نفقة الدولة (٣٦د). وما كان للغالبية من بين القضاة إلا أن يحسوا أن سقراط يسخر منهم، وأنه مستمر فى غلوائه وفى عجرفته، ويتأكد انطباعهم هذا عندما يسمعونه يكرر أنه هو الذى يجعل المواطنين سعداء على الحقيقة (٣٦د)، وأنه لن يصمت (٣٧هـ)، ولن يقبع فى ركن هادئ، بل سيستمر على طريقته نفسها. ولا شك أن القضاة شعروا بغيظ شديد وهو يعرض عليهم أخيراً، وأخيراً جداً، أن يدفع غرامةً "مينا" واحداً، وهو مبلغ تافه، ثم يقبل بعد هذا تحت ضغط أصدقائه، وأفلاطون مؤلفنا فى مقدمتهم، أن يدفع ثلاثين مينا.

والآن، وقد امتلأ الإناء، فإن الغيظ ينفجر ويُحكم على سقراط بالإعدام بأغلبية أكبر كثيراً من تلك التى أدانته أثناء التصويت الأول. وليس هناك من داع للإشارة إلى رجوعه إلى الهجوم على من أصدروا الحكم ضده (٣٨جـ) وإلى سبهم (٣٩ب)، وإلى تنبوئه لهم بشرور عظيمة تحل بهم. ليس هناك من داع لهذا، فقد قضى الأمر.

نخرج من هذا العرض بأننا إذا وضعنا موضع القضاة لاعتبرنا أن سقراط، لا جدال فى هذا، أثار قضاته إثارة وسعى إلى ذلك سعياً. والآن: ما هو مقدار مسئوليته عن الحكم بإدانته وإعدامه؟ هنا نعود إلى وجهة نظر سقراط لنجد أن لديه مبررين لسلوكه هذا: أنه يريد أن يظل دائماً متسقاً مع مبادئه، وأنه كان يقول الحقيقة دائماً مهما تكن موجعة. ولكن إذا كان لنا أن نطلق تقديراً للموقف كله، فإننا سنقول إنه حتى على فرض قبول هذين المبررين، فإنهما لا ينفيان مسئولية سقراط عن إدانته فى التصويت الأول وخاصة عن الحكم عليه بالإعدام، ومما يؤكد مسئوليته أنه كان على وعى بأنه يتحدى القضاة. فهو يقول مثلاً بصدد رفضه للإتيان بأطفاله أمام المحكمة: "وليس ذلك تحدياً منى، ولا احتقاراً لكم" (٣٤ د – هـ). وهذا النص الصريح يعنى على الأقل أنه كان يدرك أن مستمعيه سيفسرون سلوكه على هذا النحو، وهو يعود إلى نفس القول فى ٣٧أ. أما فيما يخص عرضه بأن يدفع غرامة مينا واحداً، فإنه كان يدرك أن قضاته سيأخذون هذا على مأخذ السخرية منهم (٣٨أ ، وقارن ٢٠د).

يضاف إلى هذا أمر هام. ذلك أن سقراط كان يعى خطورة موقفه. فهو الذى يقول إن الفرية التى تتابعه ترجع إلى سنين طويلة، ما يقرب من الخمسة والعشرين

http://nj180degree.com

عاما على الأقل (١٨ ب،جـ)، وأن موقفه سيكون صعباً لأن عليه أن يدافع عن نفسه ضد أشباح، حيث إن العدد الأعظم من متهميه القدماء مجهولون (١٨د). وفى نفس الوقت فإن الوقت المتاح له للدفاع عن نفسه ضيق، فعليه فى بضع ساعات أن ينزع من عقول الأثينيين أفكارا عنه تأصلت عندهم منذ سنين طويلة (١٩أ ، ٢٤أ ، ٣٧ب). ولكنه لن يصل إلى إقناعهم فى مثل هذا الوقت القصير، ويضيف بالنص: "إننى أعتقد أن هذا سيكون أمراً صعباً، وأدرك جيد الإدراك أنه كذلك" (١٩أ)، ثم يسلم أمره للإله. كذلك، فإنه كان يدرك خلال السنين الفائتة أنه كان يصنع له أعداء بين كل الفئات (٢١هـ، ٢٤أ، ٣٧أ)، بل وكان ينتظر أن تثير مواقفه القضاة (٣٤ جـ)، وأكثر من هذا: كان يتوقع إدانته (٣٦أ).

والآن: إذا نحن ضممنا أنه، من جهة، كان يعى خطر الموقف، إلى أنه، من جهة أخرى، قدّم دفاعه وتحدث على ذلك النحو الذى وصفناه والذى كان من شأنه إثارة القضاة، فإننا نجد أنه يقع على سقراط قدر غير بسيط من المسئولية فيما انتهت إليه نتيجة محاكمته، خاصة وأنه كان يعرف أنه كان يمكن أن يخرج منها سالما بعد تقارب عدد الأصوات التى برأته فى التصويت الأول مع تلك التى أدانته. وقد كانت هذه هى رغبة أصدقائه، ويدل على ذلك حثهم له، وفى مقدمتهم أفلاطون، على عرض مبلغ ثلاثين مينا كغرامة، ولا يمكن والحال هذه إلا أن نتساءل: هل تعمد سقراط إذن أن يدان وأن يعدم؟ سؤال لا تمكن الإجابة القاطعة عليه، فمن ذا الذى يجسر على إدعاء القدرة على الدخول إلى أعماق النفس وكشف خبايا النيات؟ لهذا نترك للقارئ أن يكوّن لنفسه عناصر إجابة ممكنة، وذلك بالرجوع إلى هذه النصوص: ٣٤هـ، ٣٧هـ، ٣٨جـ، ٣٩أ، ٤٠أ - ب، ٤١جـ - د، وغيرها مما يجد أنها تخص هذا الموضوع.

☆☆☆☆☆

ننتقل الآن إلى الحديث عن الفكر السقراطى كما يظهر فى هذه المحاورة. وسنتحدث أولا عن موقفه من الدولة ثم عن موقفه من الدين ثم عن فلسفته.

لقد أدى سقراط واجباته المدنية ولم يتقاعس، فاشترك فى ثلاث حملات عسكرية (٢٨هـ)، وأبلى فيها بلاء حسنا كما نعلم من محاورتى "لاخيس"

http://nj180degree.com

و"المأدبة" لأفلاطون، وكان مرة عضوا فى المجلس التنفيذى، أو مجلس الحكومة (Boulê) المكون من خمسمائة عضو. وهو مطيع للقوانين (١٩أ ، وانظر على الأخص محاورة "أقريطون" التالية)، وتهمة سمعة أثينا (٣٤هـ، ٣٨جـ حيث يتحدث عن "مدينتنا").

ورغم هذا فقد عزف عن السياسة. ويمكن تلخيص موقفه فى عبارة قصيرة: إنه لم يشتغل بالسياسة إلا وفق العدل ومكرهاً على ذلك، وحدث هذا مرة واحدة كما أشرنا، وحينما وقعت عليه القرعة.

فما هى أسباب عزوفه عن الاشتغال بالسياسة؟ هناك بالطبع انشغاله بالتفلسف وبفحص البشر، وهو ما ألهاه ليس فقط عن الاهتمام بالسياسة بل وكذلك عن الاهتمام بأموره الشخصية (٢٣ب). ولكن هناك على الأخص خطر السياسة. فقد مرت به تجربتان (٣٢ أ -جـ، جـ - د) أقنعتاه بأنه من الصعب جداً، بل من المستحيل، على الرجل الفاضل الأمين أن يشتغل بالسياسة وأن يظل سائراً فى نفس الوقت على طريق العدل (٣٢هـ). ولهذا كان أمامه أحد طريقين: إما أن ينبذ العدل إن هو اشتغل بالسياسة، أو أن يحافظ عليه دافعاً الثمن بحياته ذاتها إن اقتضى الأمر (٣٦ ب- جـ، ٣١هـ - ٣٢أ). وهناك اعتبار ثالث، ولعله الأهم، وهو التحريم الإلهى على سقراط بالاشتغال بالسياسة. فالصوت الإلهى الذى يسكن سقراط، والذى يمنعه من إتيان بعض الأفعال التى يكون مقدماً عليها، يديره دائماً عن دخول حلبة السياسة. "واعلموا علم اليقين أننى لو كنت دخلت عالم السياسة لكنت انتهيت ... فلا مناص لمن يريد الجهاد فى سبيل العدل جهاداً فعلياً، إن هو أراد أن يبقى على حياته لفترة من الزمن ولو قصرت، لا مناص له من أن يعيش حياته الخاصة فقط وألا يكون له اشتراك فى الحياة العامة" (٣١د - ٣٢أ).

ولن تغيب عن فطنة القارئ المنتبه أهمية السطور الأخيرة من هذا النص، لأنها تحوى فى بساطتها الظاهرية هجوما على النظام السياسى الأثينى بأكمله. فالسياسة تصبح، بحسب هذا التصريح، ميدان الفساد وميدان الظلم بطبيعتها، والخارج منها قد نجى والداخل إليها مفقود. كذلك فإنه يصبح من المستحيل عمليا التوفيق بين الأخلاق والسياسة. وهناك هجوم آخر من جانب سقراط يمس أهل السياسة أنفسهم. فسقراط باختصار يدفع بعدم اختصاصهم، ولن يفوت علينا أن

http://nj180degree.com

نلمح أن أول من طبق سقراط عليه فحصه بعد صدور نبوءة الإله بأنه ليس هناك من هو أحكم منه، كان أحد رجال السياسة: "وفحصته فحصا شاملا ... وقد جعلنى فحصه أحس بالتالى: فأثناء الحوار معه بدا لى أنه يظهر فى نظر الكثيرين من الآخرين، وفى نظره هو نفسه على الخصوص، أنه حكيم، أما فى الحقيقة فإنه ليس بحكيم" (٢١جـ). وقد كان رجال السياسة، وهم كثرة كثيرة فى النظام الديمقراطى، يظنون أنهم عالمون بكل شىء وعلى الأخص بأمور العدل والحرب، ويمكننا أن نجد فى محاورتى أفلاطون "ألقبيادس الكبرى" و "لاخيس" صورتين للقاء سقراط مع بعضهم وكشفه عن جهلهم حتى بالأمور التى تخص السياسة ذاتها (ويدخل فيها فن الحرب). فكيف لهم أن يجسروا على قيادة أمور الشعب وهم لا يعرفون طبيعة العدل مثلا؟ وأنّى لمليتوس أن يدعى اهتمامه بأمور الشباب، وهى فى النهاية مسألة سياسية حيث إنها تخص المدينة بأكملها، وهو لم يعن بتعميق مفاهيمه حول هذا الموضوع (٢٥جـ)؟

والقارئ لمحاورة "ألقبيادس الكبرى" يعرف أن سقراط، بعد أن يكشف لألقبيادس عن جهله وقصوره وعدم استطاعته أن يكون "خبيراً" فى السياسة طالما لم يؤهل نفسه لذلك حق التأهيل، يدعوه أولا إلى العناية بنفسه. وهذا هو نفس الحل الذى يقدمه سقراط هنا فى "الدفاع": فهو لا شاغل له إلا أن يقنع كل من يتحدث معه "بألا يقدم العناية بشىء على العناية بنفسه وألا يعنى بأمور المدينة قدر العناية بالمدينة ذاتها" (٣٦جـ). ولكن هذا الكلام البرىء يعنى فى الحقيقة قلب النظام السياسى الأثينى كله رأساً على عقب. فهو لا يكتفى فقط بوضع السياسة فى المكان الثانى بعد الأخلاق، بل هو يضع الفرد بالتالى قبل الدولة، فهو أهم منها، أو هكذا يجب أن يكون فى نظر نفسه على الأقل، وفى هذا نقض لمبدأ أولوية المدينة فى كل شىء وأولوية الكثرة أو الجمهور أو الشعب، وهو المبدأ الذى يقوم عليه الكيان السياسى للمدن اليونانية. وكل هذا يضع سقراط على اتصال وثيق مع اتجاهات السفسطائيين الذين شجعوا النزعات الفردية، وكان من نتائج تعليمهم تقويض هيبة التقاليد المتوارثة، ووريثتها لم تكن إلا المدينة نفسها كنظام سياسى، أى الدولة.

بعبارة أخرى، فإن مفهوم سقراط عن السياسة يختلف كثيرا عن تصور مواطنيه لها. ولهذا فعندما يتحدث هو عن المدينة فإنه يقصد شيئا مختلفا عما يعنيه

http://nj180degree.com

الآخرون "بالمدينة"، أى، فى نظرهم، تلك المجموعة من التقاليد المتوارثة ومن السلطات التى يتمتع بها، فى النظام الديمقراطى، مجموع المواطنين. إن سقراط، فيما يبدو لنا، لا يقصد بالمدينة معظم الوقت إلا مواطنيها كأفراد. ونستطيع أن نفهم على هذا الضوء كيف أن سقراط لم يحاول الاشتراك فى سياسة المدينة عن طريق الجمعيات العمومية، وأنه يستطيع أن يقول رغم هذا إنه فى "خدمة المدينة". فهو يعلن أن الإله أرسله هدية إلى المدينة (٣٠هـ، ٣١أ)، وأنه وضع نفسه فى خدمة الجميع فقراء وأغنياء (٣٣أ - ب)، وأنه يجد نفسه جديراً بأن يعيش على نفقة الدولة لأنه يقدم إلى كل مواطن أعظم خدمة بتنبيهه له على الاهتمام بنفسه أولا، بعبارة أخرى لأنه هو الذى يجعل المواطنين سعداء على الحقيقة (٣٦ب - هـ). ويضع سقراط هذا كله وضعا حاداً فى نص ٣٠أ الذى يقول: "إنى لأعتقد أنه لم يظهر ما هو أعظم خيراً لكم فى هذه المدينة من وضعى نفسى هكذا فى خدمة الإله". ودفاع سقراط ليس من أجل إنقاذ حياته، بل هو من أجل الأثينيين (٣٠د). فأين سيجدون من بعده رجلاً يتتبعهم بالنصح والتوجيه مثلما يفعل هو مهملا كل أموره الخاصة (٣١أ)؟ وهكذا فإن موته إنما سيكون خسارة للمدينة ذاتها، وهم إن أعدموه فإنما يجنون على أنفسهم (٣٠جـ)، وعليهم أن يحذروا من الشرور التى ستصيبهم من بعده (٣٩أ - ب)، بل هو يتنبأ لهم بعقاب أليم (٣٩جـ).

على ضوء هذا كله نفهم كيف أن الادعاء ضد سقراط لم يكن اتهاماً عادياً، بل كان قضية "سياسية" بأعمق معانى هذه الكلمة وبأدقها كذلك (الكلمة الدالة على السياسة فى اللغة اليونانية مشتقة من كلمة polis التى تعنى "المدينة")، ليس فقط فى جزئه الخاص بإفساد الشباب، بل وكذلك فى قسمه الدينى. فقد كان الدين من شأن المدينة التى كانت لها آلهتها وعبادتها الخاصة بها، وكان بعض القائمين على الحكم مختصين بالمسائل الدينية (ومنهم "الحاكم - الملك" الذى نقرأ عنه فى مفتتح محاورة "أوطيفرون").

وإذا أردنا الآن الحديث عن فكر سقراط الدينى أو عن موقفه من الدين بصفة أعم، فإننا يجب أن نبدأ بالإشارة إلى أن آراء سقراط فى هذا الميدان غير واضحة تماماً، وكثيرا ما سنضطر بصددها إلى الاستنتاج بديلا عن الاعتماد على الإشارات الواضحة. وربما كان هذا الوضع فى محاورة "الدفاع" على الخصوص

http://nj180degree.com

ناتجاً عن طبيعة موضوعها الذى هو الدفاع عن سقراط ضد اتهامات أعدائه ومنها عدم الإيمان بالآلهة. والإطار العام الذى يمكن أن يوضع فيه هذا كله هو إطار الصراع بين الدين والفلسفة، أو على الأدق الصراع بين الديانة التقليدية اليونانية والفلسفة عند سقراط وفى عصره. ذلك أن تهمة إنكار الآلهة قد وجهت إلى أنكساجوراس وإلى بعض السفسطائيين من قبل سقراط، بل إن قسما كبيرا من الصورة الشعبية عن سقراط أتى، كما أشرنا، من الصورة العامة عن "الفيلسوف" الذى يتحرى عما فى السماء وعما تحت الأرض. وكما تقول محاورة "الدفاع" نفسها، فإن الجمهور يتصور أن كل من له هذه الاهتمامات لا يؤمن بالآلهة، فهو، فى نظر الجمهور، لا يرى فى الشمس إلا حجراً ولا فى القمر إلا تراباً. وقد رأينا فى مسرحية "السحب" كيف أن "سقراط" فيها لا يدرى من هو زيوس (وهو كبير الآلهة)، ولا يعتقد فى الآلهة التقليدية ولا يعترف إلا بالسحب آلهة.

وإذا أردنا الإجابة عن سؤال: هل كان سقراط يؤمن بالآلهة؟ كان الجواب الدقيق هو أنه كان يؤمن على الأقل "بألهة". سقراط يذكر فى "الدفاع" إله معبد دلفى، أبوللون، ولكن بدون الإشارة الصريحة إلى اسمه (قارن"فيدون"، ٦٠د، ٨٥ ب)، ويذكر مستمعيه ببعض الأساطير المرتبطة بالديانة التقليدية (٢٨ب – د)، ويشير إلى العالم الآخر (هاديس) وإلى بعض آلهته (٤١أ). كل هذا صحيح، ولكنه لا يكفى للقول بأنه كان يعتقد فى آلهة الديانة التقليدية. وقد لاحظنا من قبل كيف أن سقراط يدفع مليتوس إلى تعديل صيغة الاتهام الدقيقة ("سقراط لا يؤمن بآلهة المدينة")، ليحوله إلى اتهام بإنكار وجود الآلهة بصفة عامة، وهو اتهام كان من السهل على سقراط أن يفنده، وذلك بالقياس إلى صعوبة تفنيد الصيغة الأصلية. فسقراط لا يفعل شيئاً بعد هذا إلا مجرد الإشارة إلى القسم الآخر من الاتهام وهو الخاص بإحلال آلهة جديدة محل آلهة المدينة، وعن هذا الموضوع يفيض سقراط بعض الشىء ليبرهن على أنه يؤمن ببعض الآلهة على الأقل. وكان مليتوس وصحابه يشيرون فى اتهامهم هذا إلى ما يعرف عن سقراط من اعتقاده فى "جنى" خاص ينهيه عن بعض ما ينوى أن يفعل، ولكنه، بحسب أفلاطون، لا يأمره أبدا بفعل شىء. وكان هذا الكائن، الذى يسمى باليونانية daimôn، فى مرتبة أنصاف الآلهة (انظر ٢٧ جـ – هـ)، إذن فسقراط يؤمن ببعض الآلهة. يقول فى نهاية خطبته الأولى بصدد رفضه استخدام التباكى لاستعطاف القضاة: "واضح أننى إن

http://nj180degree.com

نجحت فى إقناعكم وأجبرتكم توسلاتى على الإخلال بقسمكم [أمام الآلهة أن تحكموا بالعدل]، لكنت بهذا أعلّمكم عدم الاعتقاد فى وجود الآلهة ... وما أبعد هذا عنى! لأنى أعتقد فيهم أكثر من أى واحد من متهمىّ، وأضع نفسى بين أيديكم وبين يدى الإله للفصل فيما يجب أن يكون أفضل لى ولكم" (٣٥د). ورغم التصريح الأول، إلا أن القارئ لا يملك إلا أن يقف أمام العبارة الأخيرة التى تستخدم كلمة "الإله" وليس "الآلهة". والحق أن معظم إشارات سقراط فى هذه المحاورة هى إلى "الإله" بالمفرد، فالذى يأمره بالفحص وبإيضاح أن حكمة البشر لا تساوى شيئا هو "الإله"، والذى يطيعه سقراط هو "الإله"، والذى لا يكذب هو "الإله". ويؤدى استخدام صيغة المفرد هذه إلى التساؤل إن كانت إشارات سقراط هى إلى إله بعينه، وفى هذه الحالة هل هو أبوللون أم هو إله آخر، أم هى إلى "الألوهية" بوجه عام، حتى أن بعض المترجمين يستخدم أحياناً اللفظ الأخير، وهو ترجمة مشروعة فى بعض المواضع. والذى يمكن أن يقال الآن على الأقل هو أن مفهوم سقراط عن الإله أو عن الألوهية كان لاشك مفهوماً جديداً، ويظهر هذا من ربط سقراط له بمفاهيمه عن الأخلاق وعن الحكمة وعن الفلسفة كما سنرى.

وقد كانت الفلسفة قبل عصر سقراط لا تعنى شيئاً آخر غير البحث فى الطبيعة. وربما كان آخر ممثلى هذه الفلسفة العظام، عند الجمهور، هو أنكاساجوراس الذى يذكره سقراط فى "الدفاع". ولكن التطور الداخلى لهذا النوع من البحث، منذ المدرسة الأيونية مع طاليس أول فلاسفة اليونان حتى هيراقليطس وبارمنيدس ومن تلاهما كالمدرسة الذرية وأنبادوقليس، وكذلك الظروف الإنسانية بعامة خلال النصف الأول من القرن الخامس ق.م، أى حتى حوالى ٤٥٠ق.م)، جعلته، أى البحث فى الطبيعة أو الفلسفة الطبيعية، لا يصبح قادراً على إرضاء العقول، ولا نريد أن ندخل هنا فى تفصيل ذلك، فليس هنا مكانه. إنما يهمنا أن نعرف موقف سقراط منه. ولحسن الحظ فإن "الدفاع" تحتوى على فقرة عن العلم الطبيعى (١٩جـ - د)، وفيها يقرر سقراط أنه لا يفقه شيئا فى هذا الموضوع وأنه لا يشتغل به على أى نحو. ولكن أهم ما تحتويه هذه الفقرة هو الشك الذى يعلنه سقراط فى وجود شخص ما على الإطلاق يكون "عالما" (sophos) فى هذا العلم أو المبحث. ونستطيع أن نترجم هذا على ضوء ما نعرفه عن حالة مبحث الطبيعيات فى عصر سقراط، فقد وصل اختلاف الآراء فيه إلى غايته حتى حار

http://nj180degree.com

الناس أين تكون الحقيقة بصدده، وحتى كان رد الفعل المضاد، الذى نجده عند سقراط وعند السفسطائيين، والذى ينحصر فى إهمال هذا المبحث كلية.

ولكن ماذا يكـــون الآن مصير "البحث عن الحكمة" أو عن العلم، أى "الفلسفـــة" (philosophia)؟ على ضوء "الدفاع" لأفلاطون يبدو أن ميدان الفلسفة تحول ليكون الإنسان، وأصبح مضمونها عند سقراط شيئاً جديداً تماماً، وهو ذو جانبين: نظرى وهو الفحص، وعملى وهو الحث على الفضيلة.

ويستخدم سقراط لفظ "التفلسف" على الخصوص وليس الفلسفة (٢٨هـــ، ٢٩ جـــ)، ولهذا دلالته العظيمة. يقول إن الإله وضعه فى مركز "يوجب علىَّ الحياة متفلسفاً فاحصاً نفسى والآخرين". ويبدو من هذا النص أن التفلسف والفحص عند سقراط شىء واحد، وهكذا تصبح الفلسفة بحثاً عن المعرفة وليس مضموناً محدداً أو مذهباً يلقن، ومع هذا الاستخدام السقراطى تحتفظ "الفيلوسوفيا" بمعناها الحرفى، ألا وهو "محبة الحكمة"، أى السعى وراءها.

وسقراط يفحص الجميع بل ويفحص نفسه (٢٨هـــ مثلا). ومن الصعب تحديد مضمون دقيق لمعنى تعبير فحص سقراط لنفسه، ويمكن لمن يشاء أن يعود إلى الفقرة الخاصة بمحاولة تفسير النبوءة (٢١ب وما بعدها)، أو إلى خطبته الثانية المتعلقة بتحديد العقوبة، أو إلى محاورة "أقريطون" بأكملها، ليبحث فى هذا كله عن عناصر تساعد على فهم ذلك التعبير. والأمر أوضح بالطبع فيما يخص فحص الآخرين. وهناك فئة خاصة تجذب سقراط هى فئة مدعى المعرفة (٢١هـــ). ويقول سقراط نفسه إن فحص هؤلاء وكشف ادعاءاتهم وأنهم لا يملكون معرفة حقيقية كان يجلب بعض المتعة، وخاصة إلى نفوس الشباب الذى كان يرى قمم المدينة وقد أصبحوا أمام سقراط موضعا للاستهزاء والسخرية (٣٣جـــ). ومن أهم معايير تمييز صاحب المعرفة عن مدعيها القدرة على تقديم "التبرير" لما يقول المرء. فشرط "العلم" فى نظر سقراط هو هذا، وهو ما يجعل الشعراء والمنجمين لا يدخلون فى فئة العلماء (٢٢ب - جـــ). وعلامة أخرى على إدعاء العلم هى الوقوع فى التناقض، أو بعبارة أخرى: فإن شرط العلم هو الاتساق. وقد أظهرت بحوث سقراط نقصين خطيرين عند رجال العصر: فهناك من جهة إدعاء المعرفة، ولكن هناك كذلك تعدى حدود الميدان الخاص بصاحب المعرفة. ذلك أن سقراط لا

http://nj180degree.com

يدعى أن كل الأثينيين لا يفقهون شيئاً فى شىء، بل هو يعترف بوجود أناس يعلمون (انظر مثلا ٢٢أ)، وربما كان على رأسهم الفنيون المتخصصون فى الأعمال اليدوية، من أمثال الحدادين وصانعى السفن ومن شابههم. ولكن العيب الخطير الذى وجده سقراط لدى هؤلاء هو أنهم يظنون، ما داموا "يعلمون" فى ميدانهم الخاص، أنهم خبـراء أيضاً فى أشياء أخرى، لعلها أهم الشئون البشريـة (٢٢د)، ويقصد سقراط بها مسائل العدل والظلم والفضيلة والرذيلة. ونفس هذا العيب يوجد عند الشعراء "الذين يظنون أنفسهم أحكم البشر" (٢٢جـ). ويستطيع القارئ أن يرجع إلى محاورة "إيون" لأفلاطون، حيث يرى ادعاءات أحد المنشدين لأشعار هوميروس تصل إلى حد أنه خبير فى فن الحرب.

النتيجة الكبرى التى يخرج بها سقراط من فحوصه لحكمة الآخرين هى أنه أحكم منهم يقيناً، لأنه لا يدعى المعرفة بينما هم لا يعرفون ويدعون المعرفة رغم هذا، وهنا نلمس ذلك الموضوع المركزى فى فكر سقراط، بل وفى شخصيته، ألا وهو موضوع "الجهل" السقراطى.

نقول "شخصيته" لأن أحد المعالم الرئيسية فى الصورة الشعبية عن سقراط أنه "سوفس" أى حكيم أو عالم، بينما هو ينكر ذلك، ويقول للقضاة الذين أصدروا الحكم بإعدامه إن أهل المدن الأخرى سيشهّرون بهم قائلين: "لقد أعدمتم سقراط، ذلك الرجل الحكيم، لأنهم "سيقولون إنى حكيم بينما أنا لست حكيما" (٣٨جـ)، وذلك بقصد الإساءة إليهم. ويقول فى بدء دفاعه وعند الحديث عن نبوءة كاهنة معبد دلفى: "إننى على وعى أننى لست حكيماً لا قليلا ولا كثيراً" (٢١ب، وانظر كذلك ١٨ب)، ويؤكد نفس الشىء بنفس الألفاظ أو يكاد: "إننى على وعى أننى لا أعلم شيئا على التقريب" (٢٢جـ - د). من أين أتى هذا "الجهل" السقراطى؟ من الصعب أن نجد نصا فى "الدفاع" يشير إلى أصل لهذا الجهل، وإنما الذى نجده هو تقرير له وحسب، وإن كنا نستطيع أن نستطلع طبيعة هذا الجهل بالمقارنة بين بعض النصوص. ولعل من أفيدها فى هذا الصدد تلك الفقرة التى يتحدث فيها سقراط عن نتائج فحصه للصناع، فهى تساعدنا على الأقل على الإجابة عن سؤال: "سقراط جاهل بماذا؟". فهو يعترف فيها أنهم كانوا يعلمون أشياء كثيرة لم يكن يعلمها هو، وكانوا بهذا "أحكم" منه (٢٢د). من هذه الإشارة نخرج بنتيجتين: أولا

http://nj180degree.com

أن "الحكمة" على لسان سقراط معناها العلم أو المعرفة بوجه عام، وثانياً أن المقصود هو معرفة بعض الحقائق فى أى ميدان أياً ما كان، وهكذا فإن الرياضى عالم فى الحساب والطبيب عالم فى الطب والحداد فى الحدادة والسياسى فى العدالة، وهكذا ... وعلامة المعرفة كما أشرنا من قبل هى القدرة على التبرير، أى التفسير بالرجوع إلى أصل (٢٢ ب - جـ).

وسقراط يؤكد على جهله فى ميدانين على الخصوص، وليس من قبيل المصادفة أن يكونا هما ميدان العلم الطبيعى وميدان تعليم الفضيلة. عن العلم الطبيعى يقول إنه لا يفهم فيه شيئاً، ويشكك، كما أشرنا، فى إمكان وجود "عالم" فى هذا الميدان (١٩جـ). أما عن تعليم "الفضيلة"، أى تكوين المواطن عقلياً وتهيئته لأن يبلغ "الكمال"، فقد كان ميدان السفسطائيين. وهنا أيضاً يقف سقراط نفس الموقف: فهو من جهة لا يعتبر نفسه قادراً على القيام بذلك التعليم، وهو يشكك من جهة أخرى فى إمكان امتلاك ناصية ذلك "الفن" (٢٠جـ). ومن المهم أن نشير إلى أنه يهاجم فى هذه الفقرة الطويلة (١٩هـ - ٢٠جـ) السفسطائيين. فهؤلاء "الغرباء" يشدون إليهم الشباب مبعدين لهم على هذا النحو عن مواطنيهم (وبالتالى عن سقراط، ونلمح هنا شيئاً من الغيرة منهم، كما نرى محاولة سقراط إثارة الأثينيين عليهم، فتعليم الشباب كما أشرنا أكثر من مرة مسألة "سياسية")، كما يضاف إلى هذا كله أنهم يتناولون فى بعض الأحيان أجورا مرتفعة (٢٠ أ).

ولكن سقراط، رغم تصريحاته المتكررة عن جهله، يقول إن لديه "حكمة" معينة، وهو يصفها على الفور بأنها حكمة سلبية. وهذا هو مبدؤها: "إن الحكمة الإنسانية قليلة القيمة أو بغير ذات قيمة على الإطلاق"(٢٣أ)، والحكيم هو من يدرك أنه ليس شيئاً بالنظر إلى الحكمة الحقيقية، وهى حكمة الإله (٢٣ب). وهذه الحكمة التى تحدد قيمة المعرفة الإنسانية يسميها سقراط بالتالى "حكمة إنسانية" (٢٠د). ويعترف بأنه حائز عليها بالفعل (وهذا يجعلنا نفهم تعبير "تقريباً" المستخدم فى نص ٢٢د الذى أثبتناه فوق). وإذا كانت هذه نتيجة فحص سقراط ليس فقط للآخرين بل ولنفسه كذلك، فأين ستكون الحكمة؟ الحق أن سقراط لا يجيب فى وضوح عن هذا السؤال، ولكنه لا يقفل الباب أمام إمكان الوصول إليها، وإن كان يبدو أن ذلك صعب كل الصعوبة، لأن الحكمة ملك الإله (انظر ٢٣ أ حيث يقول إن الإله هو الحكيم حقيقة، وقارن ٤٢أ). وماذا عن حكمة الآخرين؟ يسخر سقراط

http://nj180degree.com

منها ويقول إنها لا شك "فوق إنسانية"، لأنها فى الواقع لا تزيد عن أن تكون ادعاء للحكمة. وعلى هذا تعطينا محاورة "الدفاع" مثالا هاما، وهو يخص مشكلة الخوف من الموت: "إن خشية الموت ليست شيئاً آخر غير أن يظن المرء أنه حكيم على حين أنه ليس حكيما، حيث إن هذا هو ظن معرفة ما لا يعرفه. إن أحداً لا يعرف ما هو الموت، ولا إن كان يمكن أن يكون للإنسان أعظم الخيرات كلها، ولكن الناس تخشاه كما لو كانت تعرف أنه أعظم الشرور" (٢٩أ - ب). وسيكون من المفيد أن يرجع القارئ إلى بقية هذا النص الهام الجامع لأنها توضح جانباً أساسياً من جوانب الفلسفة السقراطية. ذلك أن سقراط لا يخشى من الشرور إلا ما "يعرف" حق المعرفة أنه كذلك، أما ما هو غير ذلك فلن يهرب منه ولن يخشاه (٢٩ب، ٣٧ب). بعبارة أخرى، فإن هناك العلم وهناك العمل، والمعرفة يجب أن تكون موجهاً للسلوك. فالجانب الأساسى الذى تعبر عنه هذه الفقرة هو فلسفة سقراط العملية. ذلك أننا بحديثنا السابق عن مفهوم الفحص وعن المسائل المرتبطة به لم نتناول إلا جانباً واحداً من جوانب النشاط السقراطى. وقد بدأنا حديثنا ذاك بالإشارة إلى نص ٢٨هـ - ٢٩أ الذى يحدد مضمون البعثة السقراطية على أنه التفلسف والفحص. ولكن هناك نصاً آخر أكثر شمولا وهو الذى يقول "لن أتوقف عن التفلسف وعن حثكم" من أجل العناية "بالفكر وبالحقيقة وبالنفس وكيف تصير أفضل"(٢٩د - هـ). فالجانب المكمل إذن للتفلسف والفحص هو جانب الحث والدعوة. الدعوة إلى ماذا؟ فى كلمتين: إلى العناية بالنفس. وهذا هو أحد المفاهيم السقراطية الرئيسية، بل هو من غير شك المفهوم المركزى فى فلسفته العملية. ولن يكون ممكناً لقارئ "الدفاع" أن يحدد على الدقة ما يقصده سقراط "بالنفس"، اللهم إلا أنها ما يقابل الجسد وأنها تنتمى إلى نفس المجال الذى ينتمى إليه العقل والحقيقة، مما يسمح بالقول إنها الجانب العقلى من الإنسان.

وللعناية بالنفس مفهوم ملازم هو مفهوم الفضيلة التى هى هدف العناية بالنفس ونتيجته[٥]. ويبدو أن سقراط يقصد بها وصول النفس إلى المعرفة (إلى الحقيقة) وتنمية القدرات العقلية إلى حد الكمال (انظر ٢٩هـ بأكمله). وإذا كان هناك، من جهة، الحقيقة والعقل والنفس والعناية بها والفضيلة، فإن هناك، من الجهة الأخرى، الجسد والثروة والسعى وراء الشهرة ووراء مظاهر التشريف (٢٩د - هـ).

(٥) حول ما يمكن أن يسمى "بنجاة النفس"، انظر ٤١ د .

http://nj180degree.com

فهذان إذن نظامان للقيم (جوانى وبرانى لمن شاء استخدام هذين اللفظين)، وسقراط لا يضعهما على نفس المستوى بل هو يدعو صراحة إلى الاهتمام بالأول وإلى إهمال الثانى، أو على الأقل إلى وضعه فى مرتبة ثانوية، وليس فقط لأن النفس أهم من الجسد، بل وكذلك لأن النظام القيمى الأول "أنفع" من الثانى: "بالفضيلة تصير الثروة وكل شىء آخر خيرات للبشر، سواء فى حياتهم الخاصة أو العامة" (٣٠ب). ويجب أن نؤكد على أهمية هذا النص الخطير، لأنه يبرهن على أن الأخلاق السقراطية هى، من بعض نواحيها، أخلاق "نفعية"، وهى تتبع فى هذا اتجاها عاما للأخلاق اليونانية، وللأخلاق الشعبية على الخصوص.

http://nj180degree.com

"الـــدفـــاع"

١٧ [١٧أ] كيف كان تأثير مُتهمىّ عليكم، أيها الأثينيون[١]، هذا هو ما أجهله. أما فيما يخصنى أنا فإنهم جعلونى لا أكاد أتعرف على نفسى، بقدر ما كان كلامهم مقنعاً[٢]. ورغم هذا فإنهم، إن أمكن أن نقول هذا، لم يقولوا كلمة حق واحدة، ولكن هناك شيئاً أدهشنى إلى أبعد الحدود بين أكاذيبهم تلك الغفيرة، ذلك هو ما قالوه من أنه يجب عليكم أن تأخذوا حذركم خشية أن أخدعكم، [ب] وذلك بحجة أننى أجيد الكلام. أما أنهم لم يخجلوا من أننى سوف أفندهم بالوقائع[٣] على الفور، بحيث أننى لن أبدو على أى نحو ماهراً فى الكلام[٤]، فإن هذا بدا لى أقصى درجات عدم الاستحياء من جانبهم، اللهم إلا إذا كانوا يدعون قائل الحقيقة "ماهراً فى الكلام". فإذا كان هذا هو ما يقصدون، فإننى سأوافقهم من جانبى على أننى خطيب، ولكن ليس على طريقتهم! وأيا ما كان الأمر فإنهم، كما قلت لكم، لم يكادوا يقولون، بل لم يقولوا، شيئا حقيقيا، أما كل الحقيقة فإنكم ستستمعون إليها منى أنا. وبالطبع، أيها الأثينيون، فإنكم لن تستمعوا إلى خطبة منمقة، على شاكلة خطبهم، [جـ] ولا مزينة بالعبارات والألفاظ، بل إلى أقوال عادية مؤلفة من الألفاظ التى تأتى على الخاطر، فأنا أثق فى عدالة[٥] الأشياء التى أقولها، فلا ينتظرن أحد منكم، إذن، غير هذا. وما كان ليليق بى، من غير شك، أيها المواطنون، أن آتى إليكم، وسنى على ما هو عليه[٦]، ملفقا لكلمتين كما يفعل صغار شبابنا. وبالتالى، فإنى أرجوكم رجاء ملحاً أن تسمحوا لى بشىء: إذا استمعتم إلىّ مدافعاً عن نفسى بالكلمات ذاتها التى اعتدت نطقها فى السوق وبجانب موائد الصيارفة حيث كان يستمع إلىّ عدد كبير منكـــم،

---

(١) يخاطب سقراط قضاته، وكانوا خمسمائة (أو خمسمائة وواحد)، وكان يشاهد المحاكمة كذلك جمهور لا شك غفير.

(٢) كان الإقناع هو شغل الخطباء الشاغل. سقراط، وأفلاطون من بعده، يعارض الإقناع بالحقيقة. انظر محاورة "فايدروس"، ٢٥٩هـ وما بعدها.

(٣) من أكثر المقابلات تواردا فى المؤلفات اليونانية، وخاصة فى ميدان الخطابة، التقابل بين الكلام والفعل، وبين الكلمات والوقائع. انظر هنا ٣٢أ.

(٤) وذلك بحسب معايير "المهارة" الخطابية السائدة وقتذاك.

(٥) أى أنها حق.

(٦) سقراط ولد حوالى ٤٧٠ ق.م.

http://nj180degree.com

أو فى غير هذه الأمكنة، فلا [د] تدهشوا ولا تتصايحوا من أجل هذا، فها هى حقيقة الأمر: هذه الآن هى المرة الأولى التى أقف فيها أمام إحدى المحاكم وقد بلغ عمرى السبعين، وعليه فإننى، ببساطة، غريب عن اللغة التى تستخدم هنا(٧). وكما أنكم، لو حدث وكنت غريبا(٨) بالفعل، كنتم ستغفرون لى بلا شك أن أتحدث ١٨ باللهجة وعلى الطريقة [١٨أ] التى كنت تربيت عليها، فإنه من العدل بالتالى، فيما أعتقد، أن أطلب الآن منكم أن تغفروا طريقة أسلوبى فى الكلام، وهى قد تكون أسوأ أو أحسن من غيرها، ولكن عليكم ألا تفحصوا وألا تنتبهوا إلا إلى شىء واحد: إن كنت أقول حقا أم لا. فهذه فى الحق هى فضيلة القاضى، أما فضيلة الخطيب فهى قول الحقيقة(٩).

وإنه لمن العدل(١٠)، أيها الأثينيون، أن أبدأ بالدفاع عن نفسى أمام الاتهامات القديمة التى وجهت إلىّ، وأمام متهمىّ الأوائل، ثم بعد ذلك أقوم بالدفاع أمام الاتهامات الحديثة وضد متهمى المحدثين. [ب] ذلك أن هناك متهمين لى كثيرين قاموا بينكم ومنذ سنين طويلة مضت، ولم يرددوا إلا كذبا. وأنا أرهب هؤلاء أكثر مما أرهب أصحاب أنيتوس(١١)، رغم خطر هؤلاء أيضا، ولكن أولئك السابقين، أيها المواطنون، أخطر من هؤلاء، لأنهم أمسكوا بالكثيرين منكم منذ عهد الطفولة وأقنعوهم، فى اتهامهم لى الذى لا يحوى هو الآخر(١٢) أى قدر من الحقيقة، بأن هناك سقراط معينا: هو رجل عالم، متأمل فى أشياء السماء، ومنقب عن كل ما تحت الأرض، وأنه جاعل من القضية الضعيفة قضية قوية(١٣)، [جـ] هؤلاء الذين نشروا عنى، أيها المواطنون الأثينيون، هذه السمعة(١٤)، هؤلاء هم متهمىّ الخطرون. ذلك أن من يسمعهم يعتقد أن الباحثين فى تلك الأمور لا يعتقدون كذلك

---

(٧) أى فى المحاكم.
(٨) أى مواطنا من مدينة يونانية أخرى.
(٩) الفضيلة هى كمال السلوك، ومن هنا: ما يجب أن يكون عليه السلوك.
(١٠) dikaios، وتعنى أيضاً "من الحق"، و "من المناسب". انظر فوق، هامش (٥).
(١١) حرفيا، "الذين حول أنيتوس"، وهذا يدل على أن أنيتوس هو المحرك الحقيقى للادعاء.
(١٢) إشارة إلى ١٧ ب (فى اخرها)، من حيث انعدام الحقيقة فى الاتهام القديم والحديث على السواء.
(١٣) هذه الاتهامات نجدها جميعا فى مسرحية "السحب" للشاعر أرستوفانيز (حوالى ٤٥٠ - حوالى ٣٨٥ ق.م)، وقد تحدثنا عنها فى مقدمتنا (صـ ٨٠ - ٨١).
(١٤) الكلمة المستخدمة تعنى هنا السمعة أو الشهرة السيئة.

http://nj180degree.com

فى الآلهة. بعد هذا فإن هؤلاء المتهمين ذوو عدد، وهم يذيعون اتهاماتهم منذ وقت طويل، وهم إلى جانب هذا كانوا يقولون لكم ما يقولون فى العمر الذى كنتم فيه أسرع إلى التصديق، أى حينما كنتم أطفالاً أو شبابا[١٥]، ببساطة لقد كان اتهامهم لى اتهاما غيابياً وبدون وجود من يدفعه. ولكن الأغرب من هذا كله هو أنه من غير الممكن معرفة [د] أسمائهم أو النص عليها، اللهم إلا اسم واحد هو، بالصدفة، اسم شاعر كوميدى[١٦]. فهؤلاء الذين حاولوا إقناعكم بدافع من الغيرة أو الافتراء، ثم هؤلاء الذين اقتنعوا هم أنفسهم وأخذوا فى إقناع غيرهم، هؤلاء جميعا صعبٌ أمرهم، حيث إنه من غير الممكن إصعاد أحد منهم هنا [على منصة المحكمة] [١٧] ولا تفنيده، فكأنه قد فرض علىّ ببساطة أن أحارب فى الظلام [١٨] مدافعاً عن نفسى، وأن أرد مفنداً ولا أحد يجيب علىّ. فسلموا معى إذن، كما كنت أقول، بأن أمامى نوعين من المتهمين: من جهة، هؤلاء الذين اتهمونى مؤخراً[١٩]، ومن جهة أخرى، أولئك [هـ] القدماء الذين تحدثت عنهم. واعتبروا أنه من المفروض أن أبدأ بالدفاع عن نفسى أمام هؤلاء أولا، لأنكم استمعتم إلى اتهاماتهم أولا، وخلال وقت أطول[٢٠] بالمقارنة إلى الآخرين الذين أتوا من بعد.

١٩ فلنبدأ، إذن، ولأدافعن عن نفسى، أيها الأثينيون، محاولا [١٩أ] أن انتزع من صدوركم الفرية التى حملتموها على مدى أعوام طويلة[٢١]. ولكم أود أن تكون هذه هى النتيجة [٢٢]، إن كان ذلك أنفع لكم ولى، وأن[٢٣] أكون بدفاعى قد

---

(١٥) القضاة الذين فى الأربعين من العمر الآن كانوا منذ عشرين عاما شبابا، والذين فى الثلاثين كانوا فى ذلك الوقت أطفالا. ولنلاحظ أن "الفرية" التى تعلقت، وتعلق بسقراط، مستمرة منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما.

(١٦) هو أرستوفانيز. و "بالصدفة" (أو: "وحدث أنه") تهكم مقصود به التقليل من شأن الاتهام ومن جديته، لأن أحد مصادره ليس جاداً.

(١٧) العبارات التى ستوضع بين قوسين مربعين هكذا إضافة ليست فى النص (حرفيا كما هو مفهوم).

(١٨) أى أن يحارب أشباحا لا يراهم.

(١٩) أى أنيتوس وميليتوس ولوكون.

(٢٠) الترجمة الحرفية هى: "أكثر كثيرا"، وفى العبارة الأصلية تأكيد على الكم والكيف معا، أى على الطول والشدة.

(٢١) وهكذا فإن مهمة سقراط الأولى هى تطهير مواطنيه من الأكاذيب التى علقت بصدورهم. هاهو سقراط المربى يسبق سقراط المدافع عن نفسه فى الظهور.

(٢٢) أى تطهيرهم من الاعتقاد فى صحة الافتراء الذى انتشر حول سقراط، وكأنه مرض.

http://nj180degree.com

فعلت لنفسى شيئاً مذكوراً. ولكنى أعتقد أن هذا أمر صعب[٢٤]، ولا يخفى علىّ كم هو كذلك! وعلى أية حال، فلتسر الأمور على النحو الذى يراه الإله[٢٥] حسنا، ولأطع القانون[٢٦] ولأقم بدفاعى.

فلنرجع إذن إلى الأصل لنرى ما هى التهمة التى بنيت عليها [ب] الفرية[٢٧] التى التصقت باسمى، والتى أغرت مليتوس[٢٨] بأن يرفع ضدى الادعاء الحالى. فلنر ماذا تقول على الدقة فرية المفترين. ولنفرض كما لو أن هؤلاء المتهمين كانوا قد حلفوا اليمين، فيجب أن نعلن اتهامهم: "سقراط مذنب، فهو يعنى عناية كبرى[٢٩] بالبحث فيما تحت الأرض وما فى السماء، وبقلب القضية الضعيفة قضية قوية، [جـ] وتعليم هذا كله للغير". هذا هو الاتهام[٣٠]، وهو ما رأيتموه بأنفسكم[٣١] فى كوميديا أرستوفانيز، أى "سقراط" معينا[٣٢] يُحمل رائحا جائياً فى المسرحية، معلنا أنه يتنزه فى الهواء، ومطلقا غير ذلك الكثير من ألوان السخافات التى لا أفهم فيها شيئاً كثيراً كان أم قليلا: ولا أقول ذلك عن عدم احترام لهذه المعرفة[٣٣] المذكورة، إن كان هناك حقيقةً العالم المتمكن فى هذه الأمور[٣٤] (وذلك حتى لا أحتاج إلى

---

(٢٣) أى: ولكم أود كذلك أن ...

(٢٤) سقراط يعى صعوبة موقفه، وسيعود إلى هذا عدة مرات، مثلا ٢١هـ.

(٢٥) سيلاحظ القارئ كثرة ورود صيغة المفرد عند الحديث عن الآلهة.

(٢٦) أو "ولأضع نفسى تحت تصرف القانون".

(٢٧) انظر ١٨ ب – جـ، والسطور التى ستلى فى النص.

(٢٨) فالإدعاء الحالى ليس إذن إلا حلقة، الحلقة الأخيرة، من حلقات الافتراء كذبا على سقراط.

(٢٩) نفس الفعل الذى نترجمه هكذا يعنى أيضاً التدخل فيما لا يعنى المرء، ويجب أن يؤخذ هذا المعنى فى الاعتبار بحيث تفهم الجملة على النحو التالى: سقراط يضع عناية كبرى فى أمر كان يجب عليه، لاعتبارات دينية، ألا يخوض فيه، ألا وهو ...

(٣٠) القديم، وقد صاغه سقراط على هيئة اتهام قانونى ليرد عليه نقطة نقطة. عن الإدعاء الجديد، انظر ٢٤ ب وما بعدها.

(٣١) كان يمكن لأى أثينى أن يرى المسرحيات التى كانت تتسابق على الجوائز، ومنها مسرحية "السحب" لأرستوفانيز، وهى المقصودة هنا.

(٣٢) لأنه ليس سقراط الحقيقى (فى نظر سقراط).

(٣٣) epistêmê، والمقصود العلم الطبيعى.

(٣٤) سقراط يشكك إذن فى إمكان المعرفة الطبيعية.

http://nj180degree.com

إدعاء جديد بخصوص هذا من جانب مليتوس[٣٥])، ولكن الواقع، أيها الأثينيون، أننى غريب عن هذه المسائل كل الغربة[٣٦]. [د] وإننى استقدم على هذا الكثيرين منكم كشهود، وأطلب منكم أن يخبر بعضكم بعضاً وأن تعلنوا إن كان واحد منكم قد سمعنى أتحدث وأتناقش حول هذه المسائل، وكثيرون منكم قد استمعوا إلىّ أتحدث[٣٧]، فليقل، إذن، بعضكم لبعض إن كان هناك من سمعنى أتحدث كثيراً أو قليلاً حول هذه الأمور، وستعلمون من هذا أن كل ما يقوله الجمهور[٣٨] فى حقى إنما هو من نفس النوع[٣٩].

الواقع أن كل هذا لا تقوم له قائمة، وليس من الحقيقة فى شىء كذلك ما قد تسمعونه من أننى اشتغل بتعليم الناس [هـ] وأطلب منهم المال لقاء هذا، ذلك وإن كنت أجد أنه جميل[٤٠] أن يكون المرء قادراً على تعليم الناس، كما هو حال جورجياس الليونتينى [من ليونتيا] وبروديقوس الكيوسى [من كيوس] وهبياس الإيليسى [من إليس][٤١]. وها هو حال كل واحد من هؤلاء: هو يذهب إلى كل مدينة ويقنع الشباب، الذين فى مقدورهم، إن هم أرادوا، مصاحبة من يشاؤون من نفس مواطنيهم مجاناً[٤٢]، [٢٠أ] أن يتركوا صحبة هؤلاء وأن يصاحبوهم هم

(٣٥) متهماً لسقراط بعدم احترام العلم الطبيعى، والإشارة تبقى غير واضحة: فما الذى يربط مليتوس بالعلم الطبيعى؟

(٣٦) نتذكر هنا ما قاله شيشيرون الخطيب الرومانى الأشهر من أن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أى نقل اهتمامها من أمور الطبيعة إلى أمور البشر.

(٣٧) إذا اعتبرنا، من جهة، عدد المواطنين (أى الأحرار) الضئيل فى المدن اليونانية وفى أثينا نفسها بالطبع (حوالى العشرين ألفا فى أثينا فى عام ٤٠٠ ق.م، بحسب بعض التقديرات)، وطول عمر سقراط من جهة أخرى وقضاءه كل وقته فى الطرقات والأسواق ولدى التجار والصناع وفى المادب، لتصورنا فى يسر كيف أنه كان يمكن للكثير الكثير من الأثينيين الأحرار أن يروا سقراط وأن يتحدثوا معه.

(٣٨) أو "العامة" أو "الكثرة" أو "الشعب" بالمعنى السيء. وهذا المفهوم سيتردد كثيراً هنا وفى محاورات أفلاطون الأخرى حين تثار مسألة مصدر القيم الأخلاقية: هل هو الجمهور أم العقل والعلم. انظر مثلاً "أقريطون" كلها، وخاصة ٤٦جـ – ٤٧د.

(٣٩) أى إفتراء.

(٤٠) حرفيا: "وإن كنت لا أجد غير جميل أن ...". وقصد السخرية واضح.

(٤١) الثلاثة من أعظم السفسطائيين. انظر الصفحات الأولى من محاورة "بروتاجوراس".

(٤٢) الإشارة هنا واضحة إلى سقراط نفسه الذى كان يحادث من يريد أن يحادثه بغير أجر.

http://nj180degree.com

أنفسهم مع إعطائهم الأجور والاعتراف لهم بالجميل. وهناك بهذه المناسبة رجل آخر على شاكلة هؤلاء، مواطن من باروس، رجل عالم، قيل لى إنه يقيم الآن بيننا. وقد حدث أن ذهبت بالصدفة إلى رجل أعطى السفسطائيين أجوراً أكثر مما أعطاهم كل المواطنين الآخرين مجتمعين، ذلك هوكالياس[٤٣] ابن هيبونيكوس، وقد سألته، لأن له ولدين: "كالياس، هكذا قلت له، لو كان ولداك مهرين أو عجلين صغيرين، فإننا لكنا أحضرنا لهما رجلاً متخصصاً وندفع له الأجر، [ب] وكان سيجعلهما جميلين حسنين فى نوع الفضيلة الذى يخصهما، ولكان إما المختص فى الخيل أو المختص فى الزراعة. ولكن باعتبار أنهما من البشر، فأية فكرة لديك عن المعلم الذى ستحضره لهما؟ من هو الرجل العالم بنوع الفضيلة الخاص بهما، أى فضيلة الإنسان وفضيلة المواطن؟ إنى اعتقد أنك تدبرت الأمر لأن لك ولدين[٤٤]. هل هذا الرجل موجود أم لا؟" هكذا سألته، فقال لي: "بلى"، فعدت لسؤاله: "فمن هو؟ ومن أية مدينة؟ وبكم يعلم؟" فأجاب: "إنه إيُونس[٤٥] يا سقراط، من مدينة باروس، ويأخذ خمس مينات[٤٦]". ولقد غبطت إيونس هذا إن كان يحوز حقا هذا الفن[٤٧]، وإن كان يعلمه لقاء هذا الأجر المعتدل. وفيما يخصنى، [جـ] فإننى لو كنت أملك هذه المعرفة لكنت تبخترت ورفعت أنفى فى السماء. ولكن الواقع، أيها الأثينيون، أنى لا أملكها.

وربما يقاطعنى أحدكم قائلا: ولكن ياسقراط، ما هى حكايتك إذن؟ من أين نشأت هذه الافتراءات ضدك؟ فنحن إذا سلمنا بأنك لا تفعل شيئاً يخرج عما يفعله الآخرون، فكيف يقال كل هذا بصددك وكيف تنشأ كل هذه الأقاصيص إلا إذا كنت تفعل شيئاً مختلفاً عن الغالبية من المواطنين؟ فقل لنا إذن [د] ما هو الأمر حتى

(٤٣) أرستقراطى من أغنى الأثينيين، وكان بيته منزل السفسطائيين (انظر محاورة "بروتاجوراس").

(٤٤) الفرض الأساسى هنا هو أن السلوك لابد وأن يسبقه العلم.

(٤٥) سفسطائى وشاعر، يأتى ذكره أيضا فى "فيدون"، ٥٩ د وما بعدها.

(٤٦) المينا (mna) كان يساوى مائة درخمة، ومن الصعب تقدير المعادل الحالى لهذا المبلغ، ويقدره البعض بعشرة جنيهات ذهبا.

(٤٧) أى كان متخصصا فى التربية.

http://nj180degree.com

لا نتسرع ونحكم عليك على غير أساس وروية"[٤٨]. ويبدو لى أن صاحب مثل هذه الكلمات يقول صواباً، ولهذا فسأحاول أن أوضح لكم طبيعة الأساس الذى اعتمادا عليه اخترعت تلك السمعة وتلك الإفتراءات. فاسمعوا إذن. وربما يظن بعضكم أننى أمزح، ولكن ثقوا أنى سأقول الحقيقة كاملة. إن سمعتى هذه ليس لها من مصدر إلا وجود حكمة معينة عندى. ما طبيعة هذه الحكمة؟ ربما لا تكون أكثر من حكمة إنسانية، ويمكن أن أكون بالفعل حكيما بتلك الحكمة[٤٩]، أما الآخرون الذين تحدثت عنهم[٥٠]، [هـ] فربما كانوا حكماء بحكمة تعلو على حكمة الإنسان، وإلا فلست أدرى ما أقوله عنها[٥١]، فأنا فيما يخصنى لا أعرفها، وكل من يقول إنى أعرفها فإنه يكذب ويقول هذا إفتراء على. ولا تصيحوا فى وجهى، أيها الأثينيون، حتى ولو بدا لكم أننى أتحدث بتفخيم عن نفسى، لأن الكلام الذى سأقوله ليس بكلامى، بل سأعتمد فيما أقول على من هو جدير بثقتكم. ففيما يخص حكمتى، إن كنت أحوزها، وأى نوع من الحكمة هى، فإنى سآخذ إلى جانبى شهادة الإله
٢١ الذى فى دلفى[٥٢]. أنتم تعرفون، لا شك، خيرفون[٥٣] الذى [٢١أ] كان رفيقاً

(٤٨) كل الجملة الأخيرة ترجمة لكلمة واحدة بقصد إبراز متضمناتها.

(٤٩) ترجمة حرفية، أى: أن تكون لدىّ تلك الحكمة. يوجد فى الجملة اليونانية "مفعول وصفى" لتأكيد صفة الحكيم.

(٥٠) انظر ١٩ هـ.

(٥١) أى أنه لا يستطيع أن يصفها إلا بهذا الوصف.

(٥٢) وهو أبوللون. ونقرأ فى "أساطير اليونان" من تأليف الدكتور محمد صقر خفاجه والدكتور عبد اللطيف أحمد على، ص ٨٦ - ٨٨: "لم يكن هناك معبد يفوق معبد [دلفى] فى ذيوع الصيت، ونبوءة تبز نبوءتها فى الشهرة. فكان الناس يأتونه من كل فج عميق ... وكانت الإجابات على أسئلة السائلين ... تدلى بها كاهنة تدعى بيثيا ... وكانت هذه الكاهنة تستوى على مقعد مثلث القوائم، وتتقمصها روح الإله، فتروح فى غيبوبة طويلة، وتعتريها حالة من الهذيان قبل أن تنطق بوحيه. وكثيرا ما قرن أبوللون بالشمس حتى وصف بأنه إله الشمس، كما يتضح من لقبه "فويبوس" الذى يعنى المضىء أو الطاهر أو المطهر ... لقد كان أبوللون الدلفى قوة خيرة، ورباطا مباشرا يصل بين الآلهة والناس، وهاديا للبشر ليعرفوا إرادة السماء، وكيفية استرضاء الآلهة، وكان فوق ذلك إله التطهير".

(٥٣) من اتباع سقراط المتحمسين، ويظهر بهذه الصفة فى مسرحية "السحب" نفسها.

http://nj180degree.com

من رفقاء صباى وكان كذلك، فيما يخصكم، صديقًا للشعب[٥٤]، وشارككم نفس المنفى ورجع معكم، وتعرفون كيف كان خيرفون، وكم كان ذا حمية فى كل عمل يندفع فيه. وقد حدث أن ذهب إلى دلفى وجسر أن يطلب من الوحى (وألح عليكم، أيها المواطنون، ألا تصيحوا) إن كان هناك من هو أحكم منى. وها هى الكاهنة تعلن أنه ليس هناك من هو أحكم منى. وسيشهد أخوه الحاضر هنا أمامكم فيما يخص هذا بأن الأمر كان كذلك، حيث أن خيرفون قد توفى.

[ب] وانظروا الآن إلى السبب الذى من أجله أقول هذا. ذلك أنه يجب أن أشرح لكم من أين أتت الفرية التى أنا موضوعها. فحينما سمعت هذا[٥٥] تفكرت بينى وبين نفسى: "ماذا يريد الإله أن يقول؟ وماذا يريد أن يعنى؟ فأنا نفسى أعى أننى لست حكيما على أى نحو صغيراً كان أم كبيرا. فماذا يريد إذن أن يقول حينما يعلن أننى أحكم البشر؟ لأنه لا يمكن للإله أن يكذب، فذلك غير ممكن له[٥٦]". وظللت حائرا مدة طويلة أمام ما قصد الإله أن يقول. وأخيراً، وبعد لأى شديد، اتجهت فى بحثى الوجهة التالية: ذهبت إلى أحد هؤلاء الذين يُظنون حكماء، من أجل أن [جـ] أفند هكذا، وبأحسن طريقة، إجابة النبوءة[٥٧]، قائلا لها: "هذا الرجل أحكم منى، أما أنت فقلت إنى الأحكم"، وفحصته إذن فحصا شاملاً، ولا أحتاج إلى البوح بإسمه، ولكنه كان أحد رجال السياسة، وقد جعلنى فحصه، أيها الأثينيون، أحس بالتالى: فأثناء الحوار معه بدا لى أنه يبدو فى نظر الكثيرين من الآخرين، وفى نظره هو نفسه على الخصوص، حكيما، أما فى الحقيقة فإنه ليس بالحكيم. فحاولت إذن أن أبين له أنه يعتقد أنه حكيم ولكنه فى الواقع ليس كذلك. [د] فكانت النتيجة أن حقد على هو وكثير من الحاضرين. وفى نفسى، أثناء ابتعادى، قلبت الأمر، ورأيت أننى أحكم من هذا الرجل: فمن الممكن ألا يعرف أحد منا نحن الإثنين شيئاً ذا قيمة، ولكنه يعتقد، هو، أنه يعرف شيئاً بينما هو لا يعرفه، أما أنا،

(٥٤) أى من أنصار الحزب الديمقراطى. والإشارة إلى المنفى أثناء حكم الطغاة الثلاثين.

(٥٥) أى قول الكاهنة.

(٥٦) ou themis، حرفيا: "غير مسموح له به ..."، ويكون ذلك فى حالة البشر بناء على أمر من الآلهة أو القوانين.

(٥٧) manteion. ويقال "النبوءة" فى العربية بمعنى السفارة من الإله وبمعنى الإخبار عن الشىء قبل وقته حزرا وتخمينا. والمعنى الأول هو المقصود هنا.

http://nj180degree.com

فكما أننى لا أعرف شيئاً، فإننى لا أعتقد كذلك أننى أعرف شيئاً، فيبدو لى إذن أننى أحكم قليلا من هذا الرجل، حيث إننى لا أعرف شيئاً ولا أعتقد أنى أعرف[٥٨]. على إثر هذا ذهبت إلى آخر ممن يعتبرون أحكم من السابق، [هـ] وظهر لى نفس الشيء، وكانت النتيجة أن حقد علىّ هو الآخر وكثيرون غيره. ولكننى استمررت بعد هذا فى الذهاب إليهم واحداً بعد الآخر، واعياً، فى حزن وخوف، أننى أجعل الناس تحقد على، ولكنه كان يبدو لى رغم هذا أننى يجب أن
٢٢ أجعل كلمة الإله هى العليا[٥٩]، فيجب الاستمرار، إذن، بحثا عما تقصده النبوءة، ومع كل من [٢٢أ] يدعى المعرفة. وقسما بالكلب، أيها الأثينيون، وواجب علىّ قول الحقيقة لكم، أن هذا هو ما حدث لى: هؤلاء الذين كانوا مشهورين أكبر شهرة بالحكمة بدوا لى، إلا فى النادر، بعد فحصى لهم بحسب ما قاله الإله، أفقرهم إليها، على حين أن آخرين كانوا يُظنون أقل منهم كانوا فى الحقيقة رجالاً أجدر من وجهة نظر الحكمة[٦٠].

وواجب علىّ، أليس كذلك، أن اشرح لكم جولاتى وكم كان القيام بها مضنياً من أجل أن يصير تكذيب النبوءة غير ممكن لى. فبعد السياسيين ذهبت إلى الشعراء، إلى شعراء التراجيديا [ب] وإلى الشعراء الغنائيين[٦١] وغيرهم، مقدراً هذه المرة أننى سأدرك بالوقائع[٦٢] أننى نفسى أكثر جهلاً من هؤلاء. وقد اصطحبت معى من مؤلفاتهم ما بدا لى أنهم بذلوا فيه غاية الجهد، وسألتهم بالتفصيل عما يقصدون راغبا فى الوقت ذاته أن أتعلم منهم. ولكنى أخجل، أيها المواطنون، من أن أقول الحقيقة لكم. ولكن الحقيقة يجب أن تقال. ويمكن أن نقول إن كل الحاضرين كادوا[٦٣] أن يكونوا قادرين على الكلام حول ما كتبوه هم أفضل

---

(٥٨) فى الفقرة السابقة يعارض سقراط المعرفة الحقيقية بادعاء المعرفة، وسقراط لديه معرفة واحدة حقيقية: هى أنه لا يعرف شيئاً.

(٥٩) هذا هو أساس البعثة السقراطية.

(٦٠) أو : من وجهة نظر امتلاك الحكمة، أو : العقل، أو الحكم بحكمة وتعقل (phronimôs).

(٦١) dithuramboi.

(٦٢) أو : "أننى سألمس بيدى".

(٦٣) هكذا نترجم هنا التعبير اليونانى الصعب ترجمته إلى العربية: epos eipein (والذى له فى الفرنسية مثلا ترجمة حرفية: pour ainsi dire).

http://nj180degree.com

منهم هم أنفسهم. وظهر لى من جديد، بخصوص الشعراء كذلك، وفى أقصر وقت، أنهم لا يكتبون [جـ] ما يكتبون على أساس من علم، بل بنوع معين من [الموهبة] الطبيعية وفى حالة من الإلهام على طريقة المتنبئين الموحى إليهم والمنجمين. فهؤلاء أيضاً يقولون أشياء كثيرة جميلة ولكنهم لا يدرون شيئاً عما هم قائلون. فى مثل هذه الحالة بدا لى وضع الشعراء. وفى نفس الوقت انتهيت إلى أن الشعر يجعلهم يعتقدون أنهم أحكم البشر حتى فيما يخص الموضوعات الأخرى، وهو ما لم يكونوه على الإطلاق[٦٤]. فذهبت عنهم إذن معتقداً على أثر هذا فى تفوقى عليهم، تماماً كتفوقى على السياسيين.

وأخيراً، ذهبت إلى المتخصصين فى الأعمال اليدوية. [د] وإذا كنت أنا على وعى بأننى لا أعلم شيئاً، أو ما يقرب من هذا[٦٥]، فقد كنت واثقاً من أن هؤلاء عالمون بأشياء كثيرة وجميلة، وبخصوص هذا لم أُكذّب، فقد كانوا يعرفون أشياء لا أعرفها، وكانوا من هذه الناحية أعلم منى. ومع هذا، أيها الأثينيون، فقد بدا لى أن لدى هؤلاء الصناع الطيبين[٦٦] نفس النقيصة التى لدى الشعراء: فكل واحد منهم، لأنه يؤدى مهنته تأدية ممتازة، يعتقد أنه أحكم البشر حتى فى أهم الأمور الأخرى، وهذا الخطأ من جانبهم [هـ] غطى على معرفتهم تلك، حتى لقد ساءلت نفسى، بخصوص موضوع النبوءة، عما إذا لم يكن من الأفضل لى أن أظل كما كنت، بدون أن أكون لا عالما على نحو علمهم ولا جاهلا على نحو جهلهم، وأن هذا أفضل لى من أن يكون لى هذا وذاك معا. وكانت إجابتى على نفسى وعلى النبوءة أنه أنفع لى أن أظل كما أنا.

٢٣ هذه الاستقصاءات تولدت عنها، أيها الأثينيون، [٢٣أ] أحقاد كثيرة علىّ، ولكم هى مؤلمة وخطيرة، ومنها نشأ الكثير من الافتراءات وتلك السمعة التى تقول إنى حكيم[٦٧]. ذلك أن الحاضرين كانوا يعتقدون فى كل مرة أننى عالم أنا نفسى فى

(٦٤) انظر حول كل هذا محاورة "إيون" لأفلاطون، وقد ترجمها إلى العربية الدكتور محمد صقر خفاجة والدكتورة سهير القلماوى.

(٦٥) هكذا نترجم فى هذا الموضع نفس التعبير المشار إليه فى هامش ٦٣ فوق.

(٦٦) أو "الفضلاء"، للسخرية فيما يبدو. قارن "أوطيفرون" ٦ جـ ١.

(٦٧) انظر ٢١ ب.

http://nj180degree.com

الموضوعات التى اكشف عن جهل محدثى بها[٦٨]. ولكنه من المحتمل، أيها المواطنون، أن يكون الحكيم الحقيقى هو الإله، وأنه أراد فى النبوءة التى أوحى بها أن يقول إن الحكمة الإنسانية قليلة القيمة أو بغير ذات قيمة على الإطلاق، وإذا كان الإله قد ذكر سقراط الذى أمامكم، فما ذلك إلا ليستخدم [ب] اسمى آخذاً منى مثلا، وكأنه كان يريد أن يقول: "الأحكم من بينكم، أيها البشر، هو من أدرك، مثل سقراط، أنه بغير قيمة فى الحقيقة بالنظر إلى الحكمة". ولهذا السبب فلا أزال أروح هنا وهناك باحثاً وفاحصاً، بحسب كلمة الإله، المواطنين أهل هذه المدينة والغرباء، حينما أعتقد أن أحدهم حكيم. وحينما يبدو لى أنه ليس كذلك فإنى أظهر له، مدافعاً عن كلمة الإله، أنه ليس حكيماً. وبسبب شغلى[٦٩] هذا، فإنه ليس لدى فراغ من أجل الاهتمام بشئون المدينة على نحو جدير بالذكر، ولا بشئونى الخاصة، بل إنى أعيش فى [جـ] فقر شديد بسبب خدمتى للإله.

إلى جانب هذا، فإن الشباب الذين يلتفون حولى من أنفسهم، لأن لديهم وقت فراغ كبير (فهم من أغنى العائلات)، هؤلاء الشباب يستمتعون بالاستماع إلىّ فاحصا الناس، بل إن منهم كثيرين يقلدوننى، ويحاولون بعد ذلك بدورهم فحص الآخرين، وأعتقد أنهم يجدون على إثر هذا عدداً كبيراً من الأشخاص ممن يعتقدون أنهم يعلمون، على حين أنهم لا يعلمون إلا القليل أو لا شىء على الإطلاق. والنتيجة هى أن أولئك الذين امتحنوا يثورون علىّ أنا، ولا يثورون عليهم، [د] ويقولون إن سقراط يشكل دنسا عظيما[٧٠]، وإنه يفسد الشباب. وإذا سألهم سائل عما يفعل سقراط وعما يعلّم حتى يفسد الشباب، لم يجدوا شيئاً ليقولوه، بل هم يجهلون الإجابة. ولكن، حتى لا يظهروا ارتباكهم، فإنهم يقولون هذه الأشياء التى على كل لسان ضد المتفلسفة، مثل "[البحث فى] الأمور السماوية وما تحت الأرض"، ومثل "عدم الاعتقاد فى الآلهة"، ومثل "صنع قضية قوية من قضية ضعيفة". أما الحقيقة، فإنهم، فيما أعتقد، لن يقبلوا أن يقولوها: ألا وهى أنه أصبح واضحا أنهم يتظاهرون بالمعرفة، على حين أنهم لا يعرفون شيئا. ولكنهم لما

(٦٨) فى محاورة "مينون" مثلا لا يصدق مينون أن سقراط يجهل طبيعة الفضيلة (٧١ جـ).

(٦٩) الشغل (بالضم وبضمتين وبالفتح وبفتحتين) ضد الفراغ، وهذا مقابل دقيق لليونانى.

(٧٠) أو حرفيا: "شخص دنس أعظم الدنس"، أو كذلك: "إن هناك سقراط معينا وهو دنس أعظم الدنس"، أى غير طاهر دينيا لأنه على ضلال.

http://nj180degree.com

كانوا، فيما أعتقد، يرغبون فى أن يكونوا موضع الاحترام، [هـ] فإنهم، باعتبار شدة عزمهم وعددهم الكثير، وبالنظر إلى أنهم متكاتفون ويتكلمون بإقناع فيما يخص أمرى، فإنهم توصلوا إلى ملء آذانكم، ولا يزالون، بافتراءاتهم المصرة. هذه الإفتراءات هى التى حرضت ضدى مليتوس وأنيتوس ولوكون، مليتوس ٢٤ مملوءاً ضغينة باسم الشعراء، وأنيتوس ممثلا للصناع [٢٤أ] والسياسيين، ولوكون ممثلا للخطباء[٧١]. وهكذا، وكما بدأت بالقول، فإنه سيدهشنى أن أستطيع استخراج تلك الافتراءات منكم فى وقت قصير، على حين أنها قد حفرت لنفسها أبعاداً عميقة. هذه هى الحقيقة أمامكم، أيها الأثينيون، ولست فى قولى هذا بحاجب عنكم ولا بمخف شيئاً[٧٢] صغيرا كان أم كبيرا. ورغم هذا فإننى أكاد أعلم علم اليقين أننى أجلب على نفسى الأحقاد لنفس الأسباب السابقة، وما هذا إلا دليل على أننى أقول الحقيقة، وأن هذه هى الفرية التى تلاحقنى وأن هذا هو أصلها. [ب] وسواء استقصيتم الآن أو فيما بعد، فإنكم ستجدون أن الأمر هكذا.

حول اتهامات متهمىّ الأوائل، فليكن هذا كافيا دفاعاً أمامكم. وسأحاول بعد هذا الدفاع عن نفسى ضد مليتوس، هذا الرجل الفاضل والمحب لمدينته فيما يقول، وضد متهمى المحدثين. من جديد إذن[٧٣]، باعتبار أنهم متهمون مختلفون، فلنأخذ منهم القسم القانونى، وسيكون [اتهامهم] على هذا النحو على التقريب: "سقراط، هكذا يقولون، مذنب لأنه يفسد الشباب ولا يعتقد فى الآلهة التى تعتقد فيها المدينة، [جـ] بل فى كائنات إلهية[٧٤] جديدة مختلفة عنها". هذا هو الاتهام. فلننظر فى نقاط هذا الاتهام واحدة واحدة. يقول مليتوس، إذن، إننى مذنب بإفساد الشباب. وأنا أقول من جانبى، أيها الأثينيون، إن مليتوس هو المذنب لأنه يهزل فى شأن أمور جادة، ولأنه يأتى بالناس فى استهتار أمام المحاكم، ولأنه يتظاهر بأنه يهتم جدياً ويعنى بأمور هو لا يفقه فيها شيئاً على الإطلاق. أما أن الأمر هكذا، فهذا هو ما سأحاول أن أبرهن عليه أمامكم. [تعال] إلى جانبى هنا يا مليتوس، وأجبنى: ألا تجد [د]

(٧١) هذا التعداد يشمل معظم فئات من كان سقراط يقابلهم ويحاورهم ويمتحنهم ويفندهم.
(٧٢) حجب لم يذكر، وأخفى هنا بمعنى ذكر تحت صورة مختلفة للتمويه.
(٧٣) انظر ١٩ ب.
(٧٤) daimonia . ويقصد الاتهام ذلك "الجنى" (daimôn) الذى يظهر لسقراط على هيئة صوت داخلى. انظر حوله "أوطيفرون"، ٣ ب، وكذلك هنا ٤٠أ.

http://nj180degree.com

أن العمل على جعل الشباب فاضلا إلى أكبر حد ممكن شيء هام؟

– أنا على هذا الرأى.

– فلنخط خطوة أكبر، وقل لهؤلاء [القضاة]: من يجعل الشباب أفضل؟ فمن الواضح أنك تعرف هذا ما دمت تهتم بالأمر، وما دمت قد عثرت على المفسد، فيما تزعم، وهو أنا، وما دمت تقودنى أمام هذه المحكمة وتتهمنى. فتشجع وقل لهم من يجعل الشباب أفضل، وحدد من هو. أنت ترى يا مليتوس كيف أنك تلزم الصمت ولا تدرى بيانا. ألا يبدو لك هذا مخجلا ودليلا كافيا على ما كنت أقول، من أنك لا تفقه فى الأمر شيئاً؟ ولكن تكلم، أيها الرجل الفاضل: من يجعل الشباب أفضل؟

– القوانين .

[هـ] – ليس عن هذا كان سؤالى يا أفضل البشر، بل عن الشخص المعين الذى يجعل الشباب أفضل (وهو الذى سيبدأ أولا بمعرفة هذا الشيء الذى نتحدث عنه، أى القوانين).

– هم هؤلاء القضاة يا سقراط.

– ماذا تقول يا مليتوس؟ هؤلاء القوم يعرفون كيف يربون الشباب وكيف يجعلونه أفضل؟

– تماماً.

– هل هم كذلك جميعاً، أم منهم من هو كذلك ومنهم من ليس كذلك؟

– هم جميعاً كذلك.

٢٥ – إنك تتكلم أحسن الكلام وحياة هيرا[٧٥]، ولكم سيكونون كثيرين كثيرين القوم ذوو النفع! كيف هذا؟ وهؤلاء الذين يسمعوننا هم كذلك يجعلون الشباب يصير أفضل [٢٥أ] أم لا؟

– وهم أيضا.

(٧٥) من أهم الالهات اليونانيات، كبرى بنات كرونوس وصاحبه زيوس الشرعية، إلهة السماء.

http://nj180degree.com

– وماذا سيكون أمر أعضاء المجلس التنفيذى[٧٦]؟

– وأعضاء المجلس التنفيذى أيضاً.

– ولكن ألن يكون المواطنون مجتمعين فى جمعية عامة، أى أعضاء جمعية الشعب[٧٧]، هم الذين يفسدون الشباب؟ أم أنهم هم أيضاً جميعاً يجعلون الشباب أفضل؟

– هم أيضاً.

– إذن فكل الأثينيين، فيما يظهر، يجعلون الشباب جميلا حسنا ما عدا أنا، فأنا وحدى الذى يفسدهم: هل هذا هو ما تريد قوله؟

– بكل تأكيد، هذا هو ما أقصد.

– إذن فما أعظم سوء الحظ الذى تلقيه علىّ. ولكن أجبنى. هل تعتقد أن نفس الوضع ينطبق على حالة الخيل؟ [ب] هل كل الناس قادرون على تهذيبها أجمعين، ماعدا واحداً فقط هو الذى يفسدها؟ أم، على العكس تماما من هذا، أن واحداً أو عدداً قليلا جداً هو الذى يهذبها، ألا وهم مدربو الخيل، على حين أن الكثرة، حينما تهتم بالخيل أو تستخدمها، هى التى تفسدها؟ أليس الأمر كذلك يا مليتوس فيما يخص الخيل وكل الحيوانات الأخرى؟ بالطبع هو كذلك، سواء لم تقولاه أنت وأنيتوس أو قلتماه. وما أعظم سعادة الشباب إن كان واحد فقط هو الذى يفسدهم على حين أن الآخرين [جـ] يفيدونهم. ولكنك تبرهن، يا مليتوس، بما فيه الكفاية، على أنك ما شغلت بالك على أى نحو بأمر الشباب، وإن عدم إكتراثك لينكشف بوضوح، حيث أنك ما اهتممت بتلك الأمور التى تقودنى من أجلها [أمام هذه المحكمة].

ولكن قل لنا كذلك، وحق زيوس يا مليتوس، ما هو الأفضل: العيش فى مدينة أهلها طيبون أم فى مدينة أهلها أشرار؟ أجبنى أيها الرجل الطيب، فما أطلب منك صعبا. أليس صحيحا أن الأشرار يفعلون الشر لهؤلاء الذين يكونون فى صحبتهم باستمرار، وأن الأخيار يفعلون الخير؟

---

(٧٦) هم أعضاء مجلس "البوليه" (Boulê)، وعددهم خمسمائة، وكانت بيدهم السلطة التنفيذية.

(٧٧) ekklêsia وتضم كل المواطنين الأحرار البالغين، وهى السلطة العليا فى المدينة.

http://nj180degree.com

– بالطبع.

[د] – بعد هذا، هل يوجد من يريد أن يُضر ممن يصاحبهم أكثر من أن يستفيد منهم؟ أجب ، أيها الفاضل، لأن القانون يقضى بأن تجيب: هل هناك من يريد أن يضر؟

– يقينا لا.

– فلنستمر. حين تقودنى إلى هنا بتهمة إفساد الشباب وجعله أسوأ[٧٨]، هل ذلك على اعتبار أننى أفعل هذا بإرادتى أم على غير إرادتى؟

– بل بإرادتك[٧٩] فيما أرى.

– كيف إذن يا مليتوس؟ هل تكون، مع عمرك هذا، أحكم منى إلى هذا الحد، وأنا على هذه السن، بحيث أنك أدركت أن الأشرار يفعلون الشر دائماً للمقتربين منهم، [هـ] والأخيار الخير، أما أنا فجاهل إلى حد الوصول إلى أن أجهل حتى هذا: أنه إذا حدث وجعلت أحدا ممن يصاحبوننى شريراً فإنه يمكن أن يصيبنى على يديه سوء، وبحيث أننى أفعل مثل هذا الشر بإرادتى، بحسب ما تقول أنت؟ كلا، لن تجعلنى أقتنع بهذا يا مليتوس، لا أنت ولا أى شخص آخر فيما أعتقد[٨٠].

٢٦ الواقع أننى لا أفسد أحداً، أو إن كنت أفسدت أحداً، [٢٦أ] فإن ذلك بغير إرادتى، بحيث أنك فى كلتا الحالتين كاذب. ومن جهة أخرى، فحتى إذا كنت أفسد الشباب بغير إرادتى، فإنه ليس إلى هنا يقاد مرتكبو هذه الأخطاء غير المقصودة، بل يجب أن يؤخذوا على انفراد ليعلموا أو ليؤنبوا. لأنه من الواضح أننى لو كنت سأعلم، فإننى سأقلع عما أفعل بغير إرادتى[٨١]. أما أنت فقد تهربت من لقائى ومن

(٧٨) أو "أوحش"، وهو لفظ يستخدمه ابن سينا فى "رسالة أضحوية فى أمر المعاد"، ص ٣٦ (طبعة سليمان دنيا).

(٧٩) وبالتالى قصدا.

(٨٠) لأن فى ذلك تناقضا واضحا: أن يريد المرء لنفسه الشر بإرادته (فى هذه الحالة بأن يفسد سقراط الشباب فيسيئون إليه هم لأنهم يصاحبونه، بينما هم يصيرون أشراراً على يديه). ومذهب سقراط ألا شرير بإرادته، فكل يريد الخير لنفسه.

(٨١) الطريق مباشر فى رأى سقراط من العلم إلى العمل، فمن يعلم الخير يفعله حتما، ومن يدرك الشر ينتهى عنه فورا.

http://nj180degree.com

تعليمى، وما رغبت فى هذا قط، بل قدتنى إلى هنا حيث القانون أن يقاد المستحقون للعقاب وليس المستحقون للتعليم.

وهكذا يتضح لكم، أيها الأثينيون، [ب] ما كنت أقوله من أن مليتوس لا يفقه شيئاً صغيراً كان أم كبيراً فى هذه الأمور. ومع هذا قل لنا يا مليتوس: كيف أفسد الشباب فيما تزعم؟ أليس واضحاً بحسب نص الإدعاء الذى حررته أن ذلك يكون بتعليمى لهم "عدم الاعتقاد فى الآلهة التى تعتقد فيها المدينة، والاعتقاد فى كائنات أخرى جديدة"، أليس هذا هو ما تقول إننى أفسدهم بتعليمه؟

– تماما، هذا هو ما أقول بكل قوة.

– باسمهم إذن يا مليتوس، باسم هذه الآلهة موضوع الحديث الآن، وضح الأمر لى [جـ] ولهؤلاء القوم أكثر. فأنا غير قادر على معرفة ما إذا كنت تقول إننى أعلّم الاعتقاد فى وجود آلهة معينة (وفى هذه الحالة، فإنى أعتقد فى وجود آلهة ولست ملحدا البتة ولا أكون مذنباً بذلك)، ولكن هذه الآلهة ليست آلهة المدينة بل آلهة أخرى، ويكون هذا هو ما تتهمنى به، أى تعليم الاعتقاد فى آلهة أخرى، أم كنت تقول إننى لا أعتقد فى الآلهة وأعلم هذا للآخرين؟

– هذا هو ما أقول، أنك لا تعتقد البتة فى الآلهة.

[د] – وعلى أى أساس تقول هذا أيا مليتوس المدهش؟ فكأننى لا أعتقد، مثل الآخرين، أن الشمس والقمر إلهان؟

– قسما بزيوس، أيها المواطنون القضاة، إنه يقول بأن الشمس حجر وبأن القمر أرض.

– إنما هو أنكساجوراس[٨٢]، يا عزيزى مليتوس، الذى يخيل إليك أنك تتهم. أوَ تحتقر هكذا هؤلاء القضاة، وتعتقد أنه لا خبرة لهم بالمؤلفات المكتوبة حتى أنهم لا يعرفون أن كتب انكساجوراس الكلازومينى [من كلازومیناوى] هى التى تمتلأ بهذه

(٨٢) فيلسوف شهير ولد حوالى ٥٠٠ ق.م، وأصبح صديقا لبريكليز، ولكن السلطات الأثينية أرادات محاكمته بتهمة عدم احترام الآلهة، ففر من أثينا لتجنب ذلك. ولاحظ استدراج سقراط لمليتوس ليوقعه فى هذا الخلط.

http://nj180degree.com

الآراء؟ وهل سيأتى الشباب ليتعلمها منى بينما يمكن له أن يشتريها [هـ] فى الأوركسترا[٨٣] أحياناً مقابل دراخمة واحدة على أبعد الفروض، وليسخر من سقراط إن إدعى إنها آراؤه هو، على الأخص نظراً لغرابتها؟ فقل لى، بحق زيوس، هل هذا هو ما تعتقده: أننى لا أومن بوجود أى إله؟

– نعم قسماً بزيوس، أنت لا تؤمن بوجود أى إله على الإطلاق.

– هذا لا يمكن أن يصدق، بل لا يمكنك أنت نفسك، فى رأيى، أن تصدق هذا[٨٤]. إنى أعتقد، أيها الأثينيون، أن مليتوس شخص يميل إلى الغلواء، ولا يعرف الاعتدال ولا يستحى، وأن اتهامه الذى حرره ضدى مصدره ببساطة هو **٢٧** الغلواء وعدم الخشية وأنه لا يزال شاباً. [٢٧أ] ذلك أنه يخيل إلىّ كما لو كان قد ألف لغزا ليختبرنى: "فلنر إن كان سقراط، ذلك الحكيم، سيدرك أننى أمزح وأننى أناقض نفسى، أم أننى سأوقع به وبكل المستمعين الآخرين". فإنه يبدو لى أنه يتناقض مع نفسه فى صيغة الاتهام كما لو كان يقول: "سقراط مذنب بأنه لا يعتقد فى الآلهة، ولكنه يعتقد فى آلهة". وما هذا إلا لعب.

انظروا معى، أيها المواطنون، كيف يبدو لى أنه يتكلم على هذا النحو. أنت، يا مليتوس، أجبنا، أما أنتم [ب] فقد رجوتكم فى البداية، كما تتذكرون، ألا تصيحوا إن وضعت ما أقول فى الشكل الذى اعتدته[٨٥].

هل هناك، يا مليتوس، بين البشر من يعتقد فى وجود الأمور الإنسانية بدون الاعتقاد فى وجود البشر؟ فليجب، أيها المواطنون، ولا يصيحن أحد من جديد. هل هناك من لا يعتقد فى وجود الخيل بينما يعتقد فى أمور الخيل؟ من لا يعتقد فى وجود العازفين على الناى، ويعتقد فى الأمور الخاصة بالناى؟ هذا لا يمكن، يا أفضل الرجال. وما دمت لا تريد أنت أن تجيب، فأنا الذى سأقوله لك، لك ولهؤلاء

(٨٣) هو الموقع فى المسرح اليونانى الواقع بين مقاعد المتفرجين والموضع الذى يتحرك عليه الممثلون، أو ربما كان قسما من الساحة الرئيسية بجوار المسرح.

(٨٤) فى محاورات أفلاطون كثيراً ما يأخذ سقراط محاوره شاهدا ضد نفسه، قارن مثلا "فيدون"، ٩٢بـ ولعل أعظم مثال على ذلك هو القسم الثالث من محاورة "جورجياس" الهامة (٤٨١ ب وما بعدها).

(٨٥) هذا دليل على صياح الحاضرين فى هذه اللحظة.

http://nj180degree.com

الآخرين، ولكن أجب عن هذا على الأقل: [جـ] هل هناك من يعتقد فى وجود الأمور الدايمونية ولا يعتقد فى وجود "الدايمونات"؟[٨٦].

- لا.

- لكم أبهجنى أن أجبت، وإن كان ذلك بمشقة وبعد أن أجبرك هؤلاء [القضاة]. إذن فأنت تقبل أننى أعتقد فى أمور دايمونية وأعلّم هذا، وسواء أكانت جديدة أم قديمة فإن هذا بغير أهمية، المهم أنى أعتقد فى أمور دايمونية بحسب ما تقول، بل إنك أقسمت على هذا فى المذكرة المرفقة بإدعائك. ولكنى لو كنت أعتقد فى أمور دايمونية، فإنه يلزم بالضرورة وبلا جدال أن أعتقد فى "الدايمونات". أليس كذلك؟ بل هو كذلك. وما دمت لا تجيب، فأنا اعتبر أنك موافق على هذا. هذه [د] الدايمونات ألا تعتبرها آلهة أو أبناء آلهة؟ قل: نعم أم لا؟

- نعم.

- بالتالى، فمادمت أعتقد فى الدايمونات، بحسب ما قلت أنت، وإذا كانت هذه الدايمونات آلهة معينة، فإن هذا هو ما يجعلنى أقول عنك إنك تتكلم بالألغاز وتمزح حين تقول إننى لا أعتقد[٨٧] فى الآلهة، ثم تعود من جديد لتقول إنى أعتقد فى آلهة ما دمت أعتقد فى الدايمونات. وإذا كانت الدايمونات[٨٨] أبناء غير شرعيين للآلهة، سواء من الجنيات[٨٩] أم من غيرهن بحسب ما يروى، فمن من البشر سيعتقد فى وجود أبناء للآلهة بدون الاعتقاد فى وجود الآلهة؟ إن هذا سيكون مخالفا [هـ] للعقل كالاعتقاد فى وجود أبناء الخيل والحمير، البغال، مع عدم الاعتقاد فى وجود

---

(٨٦) مثل استعدادات، جمع "دايمون" (daimôn)، وأقرب ترجمة لهذا اللفظ هى "الجنى"، وقد استخدمناها بالفعل. انظر هامش ٨ على نص "أوطيفرون".

(٨٧) نشير هنا إلى ظهور فعل ، وقبل ذلك فى هذا السياق كان أفلاطون يستخدم nomizein، وكلاهما يعنى "يعتقد"، وإن كانت الشحنة الدينية، تحت تأثير الاستخدام، أوضح فى الفعل الثانى.

(٨٨) يمكن للقارئ أن يضع مكان "الدايمونات" كلمة "الجن" بحسب تحديدنا فى الهامش المشار إليه فى هامش ٨٦، فوق.

(٨٩) numphai. وهى كائنات إلهية أقل مرتبة من الهة الأولمبوس، وتعيش فى الكهوف والغابات وحول العيون والأنهار.

http://nj180degree.com

الخيل والحمير. لا، يا مليتوس، لا يمكن أن يكون هناك شك أنك ما أقمت هذه الدعوى إلا لتختبرنا، أو لأنك حرت فى اتهامى بذنب حقيقى. أما أن تصل إلى إقناع امرءٍ مهما ضأل حظه من التفكير أن نفس الشخص يعتقد فى الأمور ٢٨ الدايمونية وفى الأمور الإلهية ولكنه لا يعتقد هو نفسه [٢٨أ] فى وجود الآلهة ولا فى وجود الأبطال(٩٠)، لا، هذا غير ممكن مطلقاً.

لكن، لبيان أننى برئ من اتهام مليتوس، لا أظن، أيها الأثينيون، أنه يجب علىّ أن أطيل فى دفاعى أكثر من هذا، فما سبق يكفى. وعندما قلت لكم فيما سبق أن هناك أحقاداً كثيرة ضدى، وعند كثيرين، فاعلموا جيداً أن هذه هى الحقيقة. وما سيجعلنى أدان، إن حدث وأدنت، ليس هو مليتوس ولا أنيتوس، بل هو افتراء هذه الكثرة وقدحهم فىّ، وهى أمور أدانت، [ب] وستدين فيما أعتقد، كثيرين من الآخرين من الرجال الفضلاء، فمن المتوقع ألا ينتهى الخطر عندى.

وربما قال لى البعض: "ألا تخجل يا سقراط من انشغالك بهذا النوع من الحياة الذى بسببه يمكن اليوم أن تموت؟" على هذا سأرد بكلمة الحق التالية: "أنت لم تصب، أيها الصاحب، إن كنت تعتقد أنه واجب على رجل ذى قيمة مهما ضئلت أن يحسب حساب إمكان أن يحيى أو أن يموت، إنما عليه أن يعتبر شيئاً واحداً فى سلوكه: وهو إن كان يسلك سلوكاً عادلاً أم ظالماً وإن كان عمله عمل رجل فاضل أم شرير، وبحسب [جـ] ما تقول فإنك ستحكم بالغباء على أنصاف الآلهة الذين أنهوا حيواتهم أمام طراوده، وعلى الأخص ابن ثيتيس(٩١) الذى احتقر الخطر أمام العار الذى كان سينتظره. فحينما رأت أمه أنه يحترق رغبة إلى قتل هكتور، قالت له، وقد كانت إلهة، على التقريب ما يلى بحسب ما أتذكر: "أيا ولدى، إن كنت ستثأر لمصرع بارتوكلوس رفيقك وتقتل هكتور، فإنك ستموت أنت نفسك: فعلى الفور بعد هكتور سيحل قضاؤك". لقد سمع هذا، ولكنه ما عبأ بالموت ولا بالخطر،

(٩٠) كان اليونان يعبدون بعض عظام الأبطال، وبعض هؤلاء، ومنهم هرقل، كان يقترب شيئاً فشيئاً من مقام الألوهية، وكان بعضهم على أية حال أنصاف آلهة. انظر هنا ٢٨جـ.

(٩١) هو أخيل، وثيتيس هى أمه. أخيل هو أعظم أبطال مهاجمى طرواده فى "الإلياذة" لهوميروس، التى يأتى منها النص الذى سيذكره سقراط، وهكتور هو بطل طرواده المدافع عنها حتى الموت، وكان القدر قد قضى بأن مصرع هكتور سيتبعه بالحتم مقتل أخيل.

http://nj180degree.com

[د] لأنه كان يخشى أكثر وأكثر حياة الجبناء بلا ثأر للأصدقاء. ورد قائلا: "فلأمت على الفور بعد إنزال العقاب بالمذنب، حتى لا أبقى هنا موضعاً للسخرية بجانب السفن المحنية، وعبئا باطلا على الأرض المخضرة". هل تعتقد أنه عبأ بالموت والخطر؟"[٩٢].

هذا هو الأمر، أيها الأثينيون، بحسب الحقيقة: كل من وُضع فى مركز[٩٣]، إما بنفسه لأنه يعتقد أنه الأحسن له، أو وضع فيه بأمر القائد[٩٤]، يجب أن يبقى فيه، فى رأيى، وليحدث ما يحدث، وبدون أن يحسب حسابا لا للموت ولا لأى شىء آخر أمام العار. ولكم يكون سلوكى غريبا، أيها الأثينيون، [هـ] إذا كنت بقيت مثل أى فرد آخر مخاطراً بحياتى فى الموضع الذى وضعنى فيه القواد الذين اخترتموهم ليرأسونى، سواء فى بوتيديا أو فى أمفيبوليس أو فى دليون[٩٥]، أما حين يكون الإله، بحسب ما بدا لى وما أعتقد، هو الذى يضعنى فى موضع موجبا **٢٩** علىّ الحياة متفلسفا فاحصا نفسى والآخرين، فإنى فى هذه الحالة [٢٩أ] أهجر مركزى خوف الموت أو أى شىء آخر! هذا هو ما سيكون غريبا، وعندها سيكون للبعض الحق بالفعل فى سوقى إلى المحاكمة بتهمة عدم الاعتقاد فى وجود الآلهة وعاصيا للنبوءة وخاشيا الموت ومعتقداً أننى حكيم على حين أننى لست بحكيم فى الواقع. ذلك أن خشية الموت، أيها المواطنون، ليست شيئاً آخر غير أن يظن المرء أنه حكيم على حين أنه ليس حكيماً، حيث إن هذا هو ظن معرفة ما لا يعرفه. إن أحداً لا يعرف ما هو الموت، ولا إن كان يمكن أن يكون للإنسان أعظم الخيرات كلها، ولكن الناس تخشاه كما لو كانت تعرف [ب] أنه أعظم الشرور. وهل هذا إذن إلا ذلك الجهل المشين: اعتقاد أحد معرفة أشياء هو لا يعرفها؟ هنا وهكذا، أيها المواطنون، ربما أتميز عن أكثرية الناس. وإذا حدث وقلت إننى أحكم من آخر

(٩٢) لاحظ أن سقراط يبرر هنا سلوكه على نفس طريقة العامة، أى بالرجوع إلى النماذج التقليدية للسلوك، وهى الطريقة التى سيرفضها من أوطيفرون لتبرير سلوكه (انظر "أوطيفرون"، ٥ د وما بعدها).

(٩٣) أو "موضع" أو "مكان". هنا تظهر فكرة "المركز" الهامة التى ستعود إليها محاورة "فيدون"، ٦٢ب، وانظر كذلك "أقريطون"، ٥١ب.

(٩٤) القائد بشراً كان أم إلها.

(٩٥) مواقع حربية اشترك فيها سقراط.

http://nj180degree.com

على نحو ما، فإن هذا بمعنى أننى، لما كنت لست عارفاً معرفة كافية بما يجرى فى هاديس، فإننى لن أعتقد معرفة ما لا أعرفه. إننى أعرف أن الظلم وعصيان الأفضل، سواء أكان إلها أم بشراً، شىء قبيح ومخجل. ومع هذا، بعد الأشياء القبيحة[٩٦] التى أعرف أنها قبيحة، فإننى لن أخشى ولن أتهرب أبداً من الأشياء التى لا أعرف إن كان قد يحدث أن تكون أشياء حسنة.

وهكذا، فحتى إذا [جـ] برأتمونى الآن، ولم تتبعوا أنيتوس الذى قال: إما أنه لا يجب من أصله أن يؤتى بى إلى هنا، وإما، ما دام قد أُتى بى، أنه لا يمكن إلا أن أعدم، وذاكراً لكم إننى إن نجوت بجلدى هذه المرة، فإن أولادكم، سالكين فى حياتهم بحسب ما يعلمهم سقراط، سيفسدون جميعاً كل الفساد، أقول حتى إذا برأتمونى، وقلتم بخصوص هذا: "يا سقراط، إننا لن نطيع اليوم أنيتوس وسنبرئك، ولكن على شرط ألا تعود إلى شغل وقتك بذلك البحث وبالتفلسف، أما إذا [د] ضبطت وأنت تقوم بهذا، فستموت"، إذا أنتم برأتمونى على هذه الشروط فإنى مجيبكم بالتالى: "أنا أعزكم أيها الأثينيون وأحبكم، ولكنى أطيع الإله أكثر مما أطيعكم، وطالما بقى فىَّ نَفَس وكنت قادراً على ذلك، فلن أتوقف عن التفلسف وعن حثكم[٩٧]، موضحاً فى كل مناسبة لمن ألقاه فى طريقى منكم، ومتكلماً على الطريقة التى اعتدت عليها: "أيا أفضل الناس، وأنت الأثينى، والذى ينتمى إلى أعظم المدن وأشهرها حكمة وقوة، ألا تخجل من أنك تعنى بكيف تحوذ أكبر ثروة ممكنة، [هـ] وبالشهرة وبألوان التكريم، بينما لا تعنى بالفكر[٩٨] ولا بالحقيقة ولا بالنفس وكيف تصير أفضل، بل لا تفكر فى هذا حتى مجرد تفكير؟" وإذا حدث واعترض أحد منكم، وقال إنه يعتنى بكل هذا، فلن أدعه يذهب على الفور، ولن أتركه أنا من جانبى، بل سألقى عليه الأسئلة وسأفحصه وسأفنده. وإذا كان لا يبدو لى حائزاً ٣٠ على الفضيلة، [٣٠أ] بل يتظاهر بذلك، فإنى سألومه على أنه يعطى قيمة بخسة لأعظم الأشياء، وقيمة كبيرة لأوضع الأشياء. هذا هو ما سأفعله مع من يحدث وأقابل من الصغار والكبار، مع الغريب ومع المواطن من هنا، وعلى

(٩٦) أو السيئة، أى الشر بصفة عامة.
(٩٧) أى وعظكم.
(٩٨) phronêsis.

http://nj180degree.com

الأخص معكم أنتم، لأنكم أقرب إليَّ باعتبار الجنس[٩٩]. هذا هو ما يأمر به الإله، كونوا على بينة منه، وإنى لأعتقد من جانبى أنه لم يظهر ما هو أعظم خيراً لكم فى هذه المدينة من وضعى نفسى هكذا فى خدمة[١٠٠] الإله. فما أفعله ليس إلا محاولة إقناعكم شبابا وشيوخاً بألا [ب] تعنوا بأجسامكم وبثرواتكم فوق عنايتكم وبنفس الحماس بالنفس، من أجل أن تصير أحسن، قائلاً: "الفضيلة لا تأتى من الثروة، وإنما بالفضيلة تصير الثروة وكل شىء آخر خيرات للبشر، سواء فى حياتهم الخاصة أو العامة". إن كنت بقولى هذا أفسد الشباب، إذن فهذه أشياء مضرة. ولكن أن يدعى أحد عليَّ أنى أقول شيئاً آخر غير هذا، فإنه سيقول كلاماً فارغاً[١٠١]. فاتبعوا، أيها الأثينيون، كما قلت لكم، بخصوص هذا، أنيتوس أو لا تتبعوه، برؤنى أو لا تبرؤنى، ولكنى لن [جـ] أفعل على اليقين شيئاً آخر غير هذا، حتى ولو وجب علىَّ أن أموت مرات عديدة.

لا تتصايحوا، أيها الأثينيون، وابقوا على النحو الذى طلبته منكم: لا تصيحوا ضد ما أقول أياً ما كان، وأنصتوا. وإننى أعتقد أنكم ستستفيدون إن أنتم أنصتم[١٠٢]. إنى أريد أن أقول لكم أشياء ربما جعلتكم تصرخون. ولكن لا تفعلوا ذلك مطلقاً. تيقنوا أنكم إن أنتم أعدمتمونى، باعتبار أننى من أقول[١٠٣]، فإنكم لن تضرونى بقدر ما تضرون أنفسكم. فعندى أنه ليس بإمكان مليتوس ولا أنيتوس إلحاق الضرر بى، فهما غير قادرين على ذلك، حيث أننى لا أعتقد أنه من المسموح به[١٠٤] أن [د] يضير الأسوأ الأفضل[١٠٥]. ربما يستطيع، بالطبع، أن يجعلنى أعدم أو أنفى أو أحرم من حقوقى المدنية، وربما كانت هذه كلها فـــى

(٩٩) يتضح هنا أكثر من أى مكان اخر تعلق سقراط بمواطنيه الذى سيدفعه فى النهاية إلى التضحية بحياته.

(١٠٠) الكلمة اليونانية المترجمة هنا تستخدم أيضاً للدلالة على شغل البحارة فى خدمة السفينة وربانها، وهو عمل مجهد أعظم الإجهاد فى ظروف البحارة القديمة.

(١٠١) من المعنى، وحرفياً: "فإنه لن يقول شيئاً".

(١٠٢) هنا تزداد لا شك ثورة القضاة على سقراط.

(١٠٣) أى باعتباره مبعوث العناية الإلهية.

(١٠٤) انظر هامش ٥٦ فوق.

(١٠٥) المشكلة هى: هل يمكن لرجل السو ء أن يضر حقيقة رجل الفضيلة؟

http://nj180degree.com

نظره وفى نظر غيره شروراً عظيمة، ولكنها ليست كذلك فى نظرى أنا، وإنما هناك من الشر قدر أعظم من هذا بكثير فى فعل ما يفعلونه هم الآن، حينما يحاولون ظلماً إصدار الحكم بإعدام رجل. وهكذا، أيها الأثينيون، فليس دفاعى من أجل نفسى كما قد يبدو للبعض، وإنما هو من أجلكم: وذلك حتى لا تخطئوا بإدانتى فى حق [هـ] هدية الإله إليكم[١٠٦]. ذلك أنكم إذا حكمتم بإعدامى فلن تجدوا بسهولة آخر مثلى، آخر (بدون كلمات معقدة، حتى لو كان قول هذا باعثا على الضحك) مشدوداً إلى المدينة بأمر الإله، وكأنه مشدود إلى جواد عظيم ومن أصل طيب، ولكن ضخامته تتسبب فى بطئه، فيحتاج إلى أن يوقظه مهماز ما. على هذا النحو، فيما أعتقد، ربطنى الإله بالمدينة وأنا كما أنا: من يوقظ كل فرد منكم ويحثه
٣١ ويلومه، غير متوقف [٣١أ] أبداً، [وتجدونه] فى كل مكان طوال النهار. رجلاً آخر مثلى لن تجدوه بسهولة، أيها المواطنون. وإذا أردتم إتباع رأيى، فأطلقونى. ولكنه من الممكن جداً أن يكون كيلكم قد طفح كحال من غفل فأوقظ، فتنزلوا علىَّ بضربة، بل وقد تحكمون بإعدامى فى عجلة متابعين أنيتوس، ولعلكم بعد هذا تقضون البقية من حياتكم فى النوم بلا انقطاع، اللهم إلا إن أرسل الإله إليكم رجلا آخر شفقة بكم.

أما أننى الرجل الذى وهبه الإله للمدينة، [ب] فإنكم ستدركون هذا على ضوء ما يلى: ذلك أنه يبدو أن هناك شيئاً غير إنسانى فى عدم اهتمامى بسائر شئونى وفى تحملى بشجاعة لما نتج عن إهمالى لشئونى الخاصة، وذلك منذ سنين عديدة، بينما شغلت نفسى على الدوام بشئونكم، معاملاً لكل منكم بشخصه كأب أو أخ، مقنعاً له أنه من الأفضل الاهتمام بالفضيلة. ولو كان قد حدث وكنت استفدت من هذا شيئاً، أو كنت أخذت أجراً لقاء نصحى، إذن لكان للأمر تفسير. ولكنكم ترون بأنفسكم أن متهمىَّ، الذين وصلوا إلى أعلى درجات الوقاحة فى اتهاماتهم، لم يصلوا إلى حد التعرى عن كل خجل [جـ] ليجلبوا شاهداً يقول بأننى استلزمت أو طلبت أجراً. ويكفى، فيما أعتقد، فقرى شاهداً أقدمه على أن ما أقول حق. ولقد يبدو غريباً أننى أروح هنا وهناك مقدماً نصائحى تلك لكل شخص على انفراد،

(١٠٦) وهى سقراط. وبالتالى فإنهم سيخطئون فى حق الإله.

http://nj180degree.com

مهتماً بشئون الآخرين، بينما لا أجرؤ على الظهور فى الجمعية الشعبية[١٠٧] لكى أقدم نصائحى للمدينة بشأن الأمور التى تخصكم جميعاً. العلة فى هذا هو ما سمعتمونى كثيراً، وفى كل مكان، أردده عن [صوت] إلهى [د] ودايمونى[١٠٨] يظهر لى، وهو ما ذكره مليتوس فى دعواه متخذا منه موضوعاً للسخرية[١٠٩]. وقد بدأ هذا عندى منذ كنت طفلاً: صوت معين يظهر، وحينما يحدث هذا، فإنه يصرفنى دائماً عن شىء كنت أفكر فى عمله، ولكنه لم يأمرنى قط بعمل شىء، وهو الذى عارض فى اشتغالى بالسياسة، وما كان، فى رأيى، أحسن اعتراضه. فاعلموا علم اليقين، أيها الأثينيون، أننى لو كنت دخلت عالم السياسة لكان قد قضى علِىَّ، ولما أمكننى أن أكون ذا نفع لا لكم [هـ] ولا لنفسى. ولا تغضبوا منى إن قلت لكم الحقيقة: ليس هناك من بشر قادر على إنقاذ حياته إن هو عارضكم معارضة حقيقية أنتم أو أية جمعية شعبية أخرى، وحاول منع كثير من ألوان الظلم **٣٢** ومخالفات القانون من أن تحدث فى المدينة، فلا [٣٢أ] مناص لمن يريد الجهاد فى سبيل العدل جهاداً فعلياً، إن هو أراد أن يبقى على حياته لفترة من الزمان ولو قصرت، لا مناص له من أن يعيش حياته الخاصة فقط وألا يكون له اشتراك فى الحياة العامة[١١٠].

وسأعطيكم أنا على ذلك براهين قوية، ليس بكلمات، بل بما تنزلونه أنتم منزلة عليَّه، بالوقائع. أنصتوا إذن إلى ما حدث لى حتى تعرفوا أن خشية الموت ما جعلتنى أطيع أحداً فيما يخالف العدل، وأننى تعرضت للموت بسبب عدم خضوعى هذا. حقاً، إننى سأحدثكم على المكشوف حديث المحامى، ولكنه سيكون حديث الحق. لم يحدث قط أن شغلت وظيفة فى إدارة [ب] المدينة غير أن كنت عضواً فى المجلس التنفيذى. فقد حدث أن كانت قبيلتنا أنتيوخيس تملك زمام البروتانيا[١١١]

(١٠٧) dêmosia. قارن فوق، هامش ٧٧، والمقصود نفس الشىء.

(١٠٨) نسبة إلى "دايمون"، "الجنى" (انظر هامش٨ على نص "أوطيفرون"، وهنا فوق، هامش ٧٤).

(١٠٩) ترجمة أخرى ممكنة: "على طريقة كتاب الكوميديا".

(١١٠) نظرا لطبيعة تكوين المدينة اليونانية فقد كانت الحياة العامة، والاشتراك فى السياسة، فى متناول كل المواطنين. ومن هنا كان التقابل الشائع بين الحياة الخاصة والحياة العامة.

(١١١) اللجنة التى كان بيدها تسيير أمور المجلس التنفيذى (Boulê)، وهى مكونة من عشر عدد أعضائه، إذن من خمسين مواطنا يمثلون إحدى "القبائل" العشر الأثينية، وكانت البروتانيا

http://nj180degree.com

حينما كنتم تريدون محاكمة القواد العشرة الذين لم يجمعوا جثث الموتى معا بعد المعركة الحربية، مخالفين فى هذا، كما اعترفتم جميعا من بعد، للقوانين. وقد كنت الوحيد بين أعضاء البروتانيا الذى عارضكم فى عمل شىء مخالف للقوانين وصوّت ضدكم. وقد كان الخطباء على وشك الإشهار بى وتقديمى إلى المحاكمة، وكنتم تدفعونهم إلى ذلك صارخين، ولكنى رأيت أنه يجب علىّ أن أفضل المخاطرة، [جـ] واقفاً فى صف القانون والعدل، على أن اتخذ، واقفاً معكم وخشية السجن أو الموت، قرارات غير عادلة. وقد حدث هذا بينما كان النظام الديمقراطى هو نظام دولة المدينة. وقد أتى بعد ذلك النظام الأوليجاركى، وأصدر [الطغاة] الثلاثون، بدورهم، أمرهم إلىّ، بعد أن أحضرونى خامس خمسة، إلى مبنى الثولوس[١١٢]، بأن آتى بليون السلامينى [من سلامينوس] بغرض تنفيذ حكم الإعدام فيه، وكانوا كثيراً ما يصدرون مثل هذه الأوامر إلى كثير من الآخرين بغرض إشراك أكبر عدد ممكن فى مسئولياتهم. هذه المرة أيضاً برهنت من جديد، ليس بالكلام بل بالأفعال، أنى بالموت [د] لا أبالى، وكأنه لا شىء (ولعل كلامى هذا لا يصدمنكم كثيراً)، ذلك أن كل ما يهمنى هو عدم القيام بأى فعل كان ظلماً أو بعيداً عن التقوى. وهكذا فإن هذا النظام لم يرهبنى، مهما كانت سطوته، حتى أقوم بفعل ظالم: فعندما خرجنا من الثولوس، توجه الأربعة الآخرون إلى سلامينوس وجاؤوا بليون، أما أنا فقد قفلت راجعا إلى منزلى. وكاد جزائى أن يكون الموت، لولا أن سقط هذا النظام بعد ذلك بقليل. على [هـ] هذا يمكن أن يشهد أمامكم كثير من الشهود.

هل تجدون الآن أنى كنت أعمر طويلا إن كنت اشتغلت بالأمور العامة سالكا السلوك الجدير بالرجل ذى الأخلاق ومدافعاً عن العدالة وواضعا لها، كما هو واجب، فى أعظم مكانة؟ لكم أشك فى ذلك، أيها الأثينيون، وما كان لأحد آخر أن ٣٣ ينجح فى هذا. [٣٣أ] وإذا كنت هكذا، فيما أعتقد، أثناء كل ممارسة لى فى

=فى يدهم عشر السنة. والمعركة المشار إليها بعد ذلك هى معركة جزر الأرجينوساى البحرية (عام ٤٠٦ق.م)، التى انتصرت فيها البحرية الأثينية على إسبرطة، ولكن القادة لم يستطيعوا رفع جثث الموتى من الماء بسبب العاصفة.

(١١٢) مبنى فى أثينا ذو قبة مدورة كان أعضاء البروتانيا يجتمعون فيه، ولكن الطغاة الثلاثين أخذوه لأنفسهم.

http://nj180degree.com

الحياة العامة، عندما حدث لى هذا، فقد كنت نفس هذا الرجل فى حياتى الخاصة، وما قبلت أبدا من أحد شيئا مخالفا للعدالة، لا ممن يقول المفترون علىّ إنهم "أتباعى"(١١٣)، ولا من غيرهم. فما كنت يوماً أستاذاً لأحد. ولكن، حينما كان أحد ما، صغيراً كان أم كبيرا، يرغب فى الاستماع إلى وأنا أتكلم مؤدياً مهمتى(١١٤)، فإننى لم أحرّم هذا على أحد: فلست بالذى يدخل فى حوار من أجل الحصول على الأجر(١١٥)، [ب] فإذا أنا لم أنله امتنعت، بل أنا أضع نفسى تحت تصرف الغنى والفقير سواء بسواء ليسألونى، اللهم إلا إن رغبوا هم فى أن يجيبوا علىّ وأن يسمعوا ما قد أقوله. فإذا صلح أحدهم أو طلح، فإنه ليس من العدل تحميلى أنا مسئولية ذلك، فما وعدت أحداً تعليما وما علمت أحداً، وإذا ادعى أحدهم أنه حدث وتعلم منى أو استمع فى الخصوص(١١٦) إلى شىء لم يستمع إليه كل الآخرون، فاعلموا جيداً أنه لا يقول الحق.

ولكن، لأية علة يستمتع البعض بالبقاء فى [جـ] صحبتى ساعات طويلة؟ لقد سمعتمونى، أيا الأثينيون، ولقد قلت لكم كل الحقيقة: إنهم يجدون لذة فى الاستماع إلىّ أفحص هؤلاء الذين يدعون أنهم حكماء، بينما هم ليسوا بحكماء، وليس هذا فى الحق بغير متعة. وكما قلت لكم فإننى أؤدى مهمتى التى أمرنى بها الإله فى نبوءات، أو فى أحلام، وبكل الطرق التى يدرك بها الإنسان النصيب الذى حددته له الآلهة وما تأمره أن يؤديه.

هذا الذى أقول، أيها الأثينيون، هو الحقيقة، ومن السهل التحقق منه: ذلك أننى إذا كنت [د] أفسد بعض الشباب حقيقة، وإذا كنت أفسدت بعضا فى الماضى، أما كان يجب أن بعضاً منهم يدرك، وقد تقدم به العمر، أننى فى شبابهم حدث وأعطيتهم نصائح سيئة، فيتقدمون اليوم هنا متهمين لى وآخذين بثأرهم؟ وإذا كانوا لم يريدوا أن يفعلوا هذا بأنفسهم، أما كان يجب أن بعضا من أقارب هؤلاء، آباءهم

(١١٣) كان بعض زعماء الطغاة الثلاثين من أصحاب سقراط، ويمكن أن نرى هنا كذلك تلميحاً إلى عدم مسئولية سقراط عن سلوك ألقبيادس، الأثينى الطموح الذى انقلب على أثينا وخدم عدوتها اللدودة إسبرطه.

(١١٤) أى رسالته طاعة لأمر الإله، وهى حث مواطنيه على الفضيلة والعناية بالنفس.

(١١٥) وهو حال السفسطائيين.

(١١٦) الخصوص ضد العموم . أى على انفراد.

http://nj180degree.com

أو إخوتهم أو أقرباء آخرين، [يأتى]، إن كان شرا قد مس أقاربهم بسببى، ويذكر هذا الآن منتقما منى؟ وعلى أية حال، فإن كثيرين منهم حضور هنا، وإنى أرى منهم أولا أقريطون، وهو من عمرى [هـ] ومن نفس الحى[١١٧] مثلى، أبو كريتوبولوس هذا، وبعده لوزانياس من إسفيتوس، وهو أبو إسخينوس هذا، وكذلك أنيتوفون من كيفيسوس الذى أمامكم، وهو أبو إبيجينوس، وهناك غيرهم أمامكم ممن قضى أخوتهم وقتهم على ذلك النحو[١١٨]: نيقوستراتس ابن ثيوزوتيديس وأخو ثيودوتس، ولما كان ثيودوتس قد توفى، فإنه لا يستطيع أن يستعطفه[١١٩]، **٣٤** وباراليوس هذا ابن ديمودوقس، وكان ثياجيس أخوه. وهذا [٣٤أ] أديمانتس، ابن أرستون، وأخوه هو أفلاطون هذا الذى أمامكم[١٢٠]، وأيانتودورس وأخوه هو أبوللودورس هذا. وفى مقدورى أن أسمى لكم كثيرين من غيرهم، وكان يجب على مليتوس أن يقدم فى كلمته واحداً منهم على الأقل كشاهد، وإذا كان قد سهى عليه ذلك، فليفعله الآن، وأنا أسمح له بهذا، وليذكر اسما واحداً إن كان قادراً على هذا. وعلى العكس من ذلك تماما، أيها الأثينيون، فإنكم ستجدونهم جميعاً على استعداد لمساعدتى أنا المفسد [لأقربائهم]، على ما يزعم مليتوس [ب] وأنيتوس. فقد يكون هناك دافع لمن أفسدتهم لكى يقدموا لى العون، ولكن أقرباءهم، هؤلاء الذين لم أفسدهم، وهم رجال متقدمون فى السن، أى دافع لهم لكى يساعدونى إلا أن يكون ذلك هو الحق والعدل، لأنهم يعون أن مليتوس يكذب، بينما أقول أنا الحقيقة؟

فليكف هذا، أيها المواطنون. فما أستطيع الدفاع به هو هذا على التقريب، أو أشياء أخرى من نفس النوع. وربما [جـ] اغتاظ أحدكم وهو يتذكر، إذا كان قد مر بقضية أقل خطورة من قضيتى هذه، أنه توسل إلى القضاة وتضرع بالدمع الغزير، بل وأتى كذلك بأطفاله حتى يجعلهم يشفقون عليه أعظم الشفقة، وبالكثير من أقربائه الآخرين ومن أصدقائه، هذا على حين أننى لن أفعل شيئاً من هذا، وذلك فى الوقت الذى يمكن فيه أن أعتقد أننى أتعرض لأكبر خطر. ومن الممكن أن يحدث لمثل

---

(١١٧) مجموعة سكانية فى أثينا، انظر هامش ٦ على نص "أوطيفرون" فى ترجمتنا، والإشارة التالية إلى "أحياء" المذكورين.

(١١٨) أى فى صحبته.

(١١٩) من أجل ألا يشهد ضده سقراط.

(١٢٠) وهو مؤلفنا.

http://nj180degree.com

هذا الشخص، واضعا ذلك فى اعتباره، أن يحمل علىّ بسببه عجرفة منه، وما أن يهتاج لهذا حتى يضع صوته [د] بحسب ما يمليه الغضب(١٢١). إذا كان هذا هو حال أحدكم، ومن جانبى فلا يجب أن أظن ذلك، ولكن على فرض هذا، فإنى أعتقد أنى سأحدثه حديثا معقولا حين أقول له: أنا أيضاً، أيها الفاضل، لى أقارب من غير شك، فلست، كما يقول هوميروس، مخلوقاً "من شجرة(١٢٢) ولا من حجر"، بل من بشر، فلى إذن أقرباء، ولى أبناء كذلك، أيها الأثينيون، ثلاثة، واحد منهم أصبح فتى، واثنان لا يزالان طفلين، ولكنى رغم هذا لم آت بهم إلى هنا متوسلا إليكم أن تغفروا لى. لماذا إذن لا أريد إن أفعل هذا؟ ليس تحديا منى، أيها [هـ] الأثينيون، ولا استهانة بكم. أما إن كنت أجابه الموت ثابت الأقدام أم لا، فهذا أمر آخر. ولكنى لا أظن، من أجل سمعتى وشرفى(١٢٣) وسمعتكم وشرف المدينة كلها، لا أظن أنه من الجدير بى أن أفعل هذا، وأنا على هذه السن ومع سمعتى تلك، سواء
٣٥ كانت على أساس أم كانت زيفا. ولكن الواقع هو أن هناك اعتقاداً بأنه [٣٥أ] يوجد شىء يتميز به سقراط عن معظم البشر. فإذا كان المشهورون بينكم بالتفوق سواء فى الحكمة أو فى الشجاعة أو فى أية فضيلة من نوع آخر، سيسلكون هذا السلوك، فلكم سيكون هذا عارا. إلا أننى كثيراً ما رأيت بالفعل أناساً من هذا النوع، كانوا يعتبرون من ذوى الفضيلة، وحينما يحاكمون يأتون بأعمال غريبة مذهلة، كما لو كانوا يعتقدون أنه أمر رهيب أن تحكموا بإعدامهم، وكما لو كانوا سيخلدون فى حالة ألا تميتوهم. أما أنا فأعتقد أنهم يجلبون العار على المدينة، حيث أنهم يجعلون بعض الغرباء [ب] يعتبرون أن أولئك المتميزين بفضيلتهم من الأثينيين، وهم الذين يختارهم الأثينيون ذاتهم مفضلين لهم على أنفسهم لمراكز القيادة ومراكز الشرف الأخرى، أنهم لا يتميزون فى شىء عن النساء. هذه، أيها الأثينيون، أشياء لا يجب عليكم أن تفعلوها إن كانت لكم شهرة حيازة نوع من الفضيلة، وإن حدث وفعلناها فلا يجب أن تسمحوا بها، بل، على العكس، يجب أن تبينوا أن أصواتكم ستدين ذلك الذى يؤدى أمامكم تلك التمثيليات التى تبعث على الرثاء، جاعلاً المدينة موضع السخرية بفعله هذا، أكثر من أن تدين ذلك الذى يحتفظ بهدوئه.

---

(١٢١) فيصوت بإدانة سقراط.
(١٢٢) فى الأصل "شجرة القرو".
(١٢٣) doxa، وهى تعنى هنا معا السمعة والشرف.

http://nj180degree.com

وبصرف النظر عن الشرف، أيها المواطنون، فما أجد حقاً [جـ] التوسل إلى القاضى ولا النجاة بفضل هذا التوسل، وإنما الواجب إعلامه وإقناعه. فما يجلس القاضى فى مقعده من أجل هذا: أن يوزع العدل بحسب ما يحلو له، بل من أجل أن يفصل بالعدل. فقد أقسم ألا يحكم بحسب ما يحلو له، بل أن يحكم بحسب القوانين. ولهذا فلا يجب علينا أن نعوّدكم على الحنث باليمين ولا أن تتعودوا أنتم على ذلك، ففى كلتا الحالتين سيكون هذا دليلا منا على قلة ورع. فلا تنتظروا إذن منى، أيها الأثينيون، أن أفرض على نفسى أمامكم ألواناً من السلوك لا أجد فيها جمالاً ولا [د] عدلاً ولا ورعاً، وخاصة، بحق زيوس، بينما أجدنى متهماً بعدم احترام الآلهة من قبل مليتوس هذا. فواضح أننى إن نجحت فى إقناعكم وأجبرتكم توسلاتى على الإخلال بقسمكم، إذن لكنت بهذا أعلمكم عدم الاعتقاد فى وجود الآلهة، وهكذا يكون دفاعى عن نفسى ببساطة اتهاما لى بعدم الاعتقاد فى الآلهة. وأما أبعد هذا عنى! لأنى أعتقد فيهم، أيها الأثينيون، أكثر من أى واحد من متهمىّ، وأضع نفسى بين أيديكم وبين يدى الإله للفصل فيما يجب أن يكون أفضل لى ولكم.

[أصدر القضاة قرارهم بأن سقراط مذنب بأغلبية ضئيلة ، ويبقى تحديد العقوبة]

٣٦ [هـ] إذا كنت لم أسخط، أيها الأثينيون، ضد هذا [٣٦أ] الحكم الذى تدينوننى به، فإن ذلك لأن هناك اعتبارات كثيرة أدت إلى موقفى هذا، ومنها أننى لم أكن استبعد أن يحدث هذا الذى حدث، ولكن الذى أدهشنى أكثر من أى شىء آخر هو عدد الأصوات التى ذهبت فى كلا الاتجاهين، فما كنت أظن من جانبى أن الفرق سيكون ضئيلا هكذا، بل كنت أظن أنه سيكون كبيراً. وفى الحقيقة فإنه، بحسب ما يبدو لى، إذا كانت أصوات ثلاثون قد غيرت من اتجاهها، لكنت برئت. ويبدو لى الآن أننى قد نجوت من مليتوس، وليس فقط نجوت، بل إنه واضح كل الوضوح أنه إذا لم يكن أنيتوس ولوكون قد تقدما إلى المنصة ليتهمانى[١٢٤]، لكان قد دفع [ب] ألف دراخمة لعدم حصوله على خمس عدد الأصوات.

على أية حال، هو يطلب أن يكون الموت قصاصى. هذا هو ما يطلب. وأنا،

(١٢٤) وليساعدا مليتوس فى تقديم الاتهام بغرض زيادة التأثير على القضاة.

http://nj180degree.com

أيها الأثينيون، ماذا عساى أن أقترح قصاصاً؟ أليس من الواضح أنه ما أستحق؟ وماذا أستحق؟ ماذا أستحق من ثواب أو عقاب من أجل أن اخترت حياة لا تعرف الراحة، مهملا ما يهتم به معظم الناس من ثروة وأمور منزلية ووظائف القيادة الحربية ووظائف سياسية، وغيرها من ألوان القيادات، وتحالفات وتحزبات سياسية تنشأ فى المدينة، معتبراً أننى [جـ] فى الحقيقة رجل أطيب من أن أستطيع إنقاذ حياتى لو كنت دخلت هذا الطريق؟ من أجل أننى بالتالى لم أسلك طريقاً ما كان يعود عليكم وعلى بالنفع؟ من أجل أننى رحت أخدم كلا منكم بشخصه أعظم الخدمات (بحسب ما أقول)، آخذاً هكذا فى إقناع كل شخص منكم بألا يقدم العناية بأى شىء من شئونه على العناية بنفسه من أجل أن يصير أفضل أخلاقياً وعقلياً، وألا يعنى بأمور المدينة قدر العناية بالمدينة ذاتها[١٢٥]، وأن تسير عنايته بكل شىء آخر على [د] نفس الطريقة؟ ماذا أستحق إذن أن أتلقى لأننى كنت هكذا؟ أستحق الخير، أيها الأثينيون، إن كان القصاص سيكون حقاً بحسب الاستحقاق، وهذا الخير يجب أن يكون مناسباً للرجل الذى أكون. فماذا يمكن إذن أن يكون مناسباً لرجل فقير خدوم يقوم بأحسن الخدمات، ومحتاج إلى التمتع بالفراغ حتى يعظكم فيما يخصكم؟ ليس هناك، أيها الأثينيون، أنسب من أن يطعم هذا الرجل فى البروتانيون[١٢٦]، وهو أحق بذلك من هذا أو ذاك منكم ممن فازوا فى الألعاب الأولمبية على حصان أو على عربة يجرها جوادان أو أربعة! فهو يجعلكم تصيرون سعداء فى الظاهر، أما أنا فعلى [هـ] الحقيقة، وهو لا يحتاج إلى طعام، أما أنا فمحتاج إليه، فإذا كان يجب علىّ إذن أن أحدد القصاص بحسب الاستحقاق مراعياً العدالة، فإن [٣٧أ] ما أحدده هو أن أطعم فى البروتانيون. **٣٧**

(١٢٥) ما هو قصد سقراط؟ إن النموذج الذى أمامه هو عناية الفرد بنفسه قبل عنايته بالثروة وبالمنصب. فما هو مقابل هذا فى حالة المدينة؟ قد يكون ذلك العناية بدستور المدينة وبطريقة الحكم فيها قبل العناية بالفتوحات الخارجية والسيطرة السياسية والاقتصادية التى كانت شغل النظام الديمقراطى الشاغل خلال الخمسين عاما السابقة، والتى أودت به وبأثينا معا. وهناك تفسير اخر ممكن: أن يكون المقصود هو العناية بالدولة فيما ينبغى أن تكون عليه، وليس بإدارتها باقية على ما هى عليه. ولكننا نرجح التفسير الأول.

(١٢٦) بناء عام فى كل مدينة تحفظ فيه النار المقدسة ويطعم فيه ضيوف الدولة والذين يعيشون على نفقتها من المواطنين (انظر بقية النص).

http://nj180degree.com

وربما يبدو لكم أننى أتكلم على نحو قريب جداً من ذلك الذى استخدمته بخصوص التباكى والتضرع، وأننى أتحداكم[١٢٧]. ليس الأمر كذلك أيها الأثينيون، بل هو كالتالى: إننى مقتنع بأننى لا أذنب بإرادتى فى حق أى بشر، ولكنى لا أصل إلى إقناعكم بذلك، فلن يكن لدينا فى الحق إلا القليل من الوقت للتحادث. ذلك أنه كان يمكن لى، فيما أعتقد، أن أقنعكم إذا كانت القاعدة، كما هو الحال عند أقوام آخرين[١٢٨]، ألا يفصل فى قضايا الأعدام [ب] فى يوم واحد بل خلال عدة أيام. فالواقع أنه ليس من السهل القضاء فى وقت قصير على افتراءات تعاظمت. مقتنعا، إذن، فيما يخصنى، أننى لا أذنب فى حق أحد، فما أبعدنى عن الإجرام فى حق نفسى، وعن أن أعلن أنا نفسى، وفيما يخصنى، أننى أستحق شراً، وعن تحديد عقاب لى. فماذا أخشى؟ أن أقاسى مما يطلبه مليتوس عقابا لى[١٢٩]، بينما قلت إنى لا أعرف إن كان ذلك خيراً أم شراً؟ هل أختار، كعقاب لى، بدلا من هذا، شيئاً ما أعلم حق العلم أنه شر؟ هل اختار السجن؟ [جـ] ولم أوجب على نفسى العيش بين القضبان عبداً للموظفين المتوالين دورياً أمر السجن، للأحد عشر؟ أم الغرامة، فأسجن حتى أدفعها؟ ولكن هذا يعود عندى إلى نفس الشىء الذى تحدثت عنه منذ لحظة: فلست أملك ثروة حتى أدفع منها. فهل أعاقب نفسى باختيار المنفى؟ ربما كان كثيرون منكم سيحددون هذا عقابا لى. ولكن لكم سيكون حبى للحياة عظيما، أيها الأثينيون، لدرجة أن يصل بى إلى فقد العقل، فلا أقدر على إدراك أنكم، وأنتم مواطنىّ، لم تستطيعوا تحمل [د] محادثاتى وكلماتى، بل لقد أصبحت ثقيلة كريهة عليكم حتى لتبحثون الآن فى التخلص منى. فمن بين الآخرين سيتحملها بسهولة؟ ما أبعد ذلك عن التصور، أيها المواطنون. ولكم ستكون حياتى تلك جميلة منفيا، وأنا فى سنى هذه، قاضيا عمرى مغيراً مدينة بأخرى، ومنفيا منها جميعاً! ذلك أننى على يقين من أننى حيثما ذهبت فسيأتى الشباب ليستمع إلى حديثى كما هو الحال هنا. فإن أنا أبعدتهم، فسيكونون هم الذين يطردوننى مقنعين الكبار بذلك، [هـ] وإن لم أبعدهم فسيفعل آباؤهم وأقرباؤهم هذا من أجلهم.

---

(١٢٧) انظر ٣٤ د - هـ.

(١٢٨) كما هو الحال فى إسبرطه مثلا.

(١٢٩) أى الإعدام.

http://nj180degree.com

وقد يقول قائل: "يا سقراط، أفإن التزمت الصمت وعشت فى هدوء، أو لن تستطيع الحياة فى المنفى؟" وهذا هو أصعب ما يمكن إقناعكم به، لأننى إن قلت لكم **٣٨** إنه سيكون فى هذا عصيان للإله، وإنى لهذا غير قادر [٣٨أ] على العيش فى هدوء، فلن تصدقونى ظانين أننى أتكلم بتهكم. وإن قلت لكم، فوق ذلك، إن هذا هو على الدقة أعظم خير يصيب الإنسان: أن يقوم بالحديث كل يوم فى موضوع الفضيلة وفى الموضوعات الأخرى التى سمعتمونى أتحاور حولها، فاحصا نفسى وفاحصا الآخرين بشأنها، ومن ناحية أخرى فإن حياة بلا فحص[١٣٠] ليست حياة جديرة بإنسان، فلن تصدقوا ما أقول أكثر وأكثر، ورغم هذا، كما قلت لكم أيها المواطنون، فإن الأمر هو هكذا، ولكن إقناعكم بذلك ليس سهلا.

وفى نفس الوقت فإننى لم أتعود على فكرة أننى مستحق لأى شر. [ب] مع هذا، فلو كنت أملك ثروة، لكنت حددت غرامة يكون فى مقدورى دفعها، فما سيكون فى هذا مضرة لى، ولكن الواقع أننى لست بذى ثروة. اللهم إلا إن أردتم أن تحددوا ما يكون فى مقدورى دفعه، وربما كان فى مقدورى أن أدفع لكم مينا من الفضة. ولكن أفلاطون هذا الذى أمامكم، أيها الأثينيون، وأقريطون وكريثوبولس وأبوللودورس يدعوننى أن أحدد غرامة ثلاثين مينا، وهم الضامنون، فهذا هو إذن ما أحدد غرامة علىّ، وسيكون ضامنو سداد هذا المبلغ أمامكم ممن يعتمد عليهم.

[بعد الحكم على سقراط بعقوبة الإعدام]

[جـ] ما أقصر الوقت، أيها الأثينيون، الذى صنعتم فيه لأنفسكم سمعة سيئة ووفرتم اتهاما يلقيه عليكم من يتوقون إلى التشهير بمدينتنا: أنكم أعدمتم سقراط، ذلك الرجل الحكيم، لأنهم سيقولون، أى هؤلاء القاصدون الإساءة إليكم، إننى حكيم بينما أنا لست حكيما. أما لو كنتم قد انتظرتم قليلا، لكان قد حدث من تلقاء نفسه ما سيتم على أيديكم: فأنتم ترون سنى وأننى متقدم فى العمر ومن الموت قريب. وأنا لا أقول هذا [د] لكم جميعا، بل لأولئك الذين صوتوا ضدى بالإعدام. وإنى أقول لهم أنفسهم كذلك ما يلى: ربما تعتقدون، أيها الأثينيون، أننى أدنت افتقارا إلى تلك

(١٣٠) أى بلا فلسفة.

http://nj180degree.com

الخطب التى لعلها كانت أقنعتكم، لو كنت اعتقدت أنه واجب علىّ أن أفعل وأن أقول كل شىء حتى أتهرب من الإدانة. ما أبعد هذا عن الواقع! فما أدنت افتقاراً إلى خطب، فى الحق، بل افتقاراً إلى الجسارة والوقاحة، ولأننى لم أرد أن أتحدث أمامكم على النحو الذى كان سيمتعكم سماعه أعظم إمتاع، ألا وهو سقراط يئن وينوح، فاعلاً [هـ] وقائلاً أشياء كثيرة لا أعتبرها جديرة بى، بحسب ما أقول أنا، أشياء تعودتم أنتم على سماعها من الآخرين. وكما أننى لم أعتقد منذ برهة أنه يجب علىّ، خشية الخطر، أن أفعل ما لا يليق برجل حر، فإنى لا أندم الآن على أننى دافعت عن نفسى على النحو الذى فعلت، ولأننى أفضل كثيراً أن أموت بعد أن أكون قد دافعت عن نفسى هكذا على أن أعيش بفضل تلك الأفعال، فلا يجب لا علىّ ولا على أى فرد آخر، لا أمام المحكمة ولا فى الحرب، [٣٩أ] أن يصطنع تلك الوسائل للهروب من الموت بأية طريقة. فكثيراً ما يحدث فى المعارك أن يظن أحدهم أنه سيهرب من الموت بإلقاء السلاح والتضرع إلى مطارديه أن يتركوه وشأنه. وهناك ألف وسيلة أخرى فى كل نوع من أنواع الخطر للهروب من الموت إذا ما كانت عند الفرد جسارة أن يفعل أى شىء وأن يقول كل شىء. إلا أن الصعب، أيها الأثينيون، ليس هو تلافى الموت بقدر ما أنه تلافى الشر، [ب] وهو الذى يتفشى بأسرع من الموت. والآن، وأنا فى حالتى هذه، وأنا البطىء المتقدم فى العمر، فقد أصابنى الأبطأ فيهما، أما متهمى، وهم الأقوياء خفاف الحركة، فإن الأسرع فيهما قد مسهم، وهو الشر. وسأخرج أنا الآن مدانا منكم ومحكوماً علىّ بالموت، أما هم فإنهم سيخرجون وقد أدانتهم الحقيقة بأنهم أشرار ظلمة. وإنى لقانع بما حُدد لى وهم بما حدد لهم. وربما كان هذا ما ينبغى أن تكون عليه الأمور، وإنى لأعتقد أنها ما يجب أن تكون عليه[١٣١].

٣٩

[جـ] بعد هذا، أرغب فى أن أتنبأ لكم بشىء، أنتم يا من أدنتمونى، لأنى الآن، فى وضعى هذا، فى الحالة التى تسمح للإنسان أكثر ما تسمح بإطلاق النبوءات، وهو على وشك مغادرة الحياة[١٣٢]. أقول إذن لكم، يا من حكمتم علىّ بالموت، إنه سينزل عليكم عقاب فور أن يأتينى الموت، عقاب أقسى، وحق زيوس، من ذلك الذى تفرضونه علىّ بإعدامى. فأنتم تفعلون هذا الآن على أمل ألا تعودوا

(١٣١) metriôs ، حرفيا "بمقياس"، وتعنى كذلك: إلى حد ما، باعتدال.
(١٣٢) قارن "فيدون"، ٨٤هـ وما بعدها.

http://nj180degree.com

مضطرين إلى وضع حياتكم موضع الفحص، هذا على حين أننى أقول لكم إن النتيجة ستكون مخالفة لهذا كثيراً. فسيكثر عدد [د] الفاحصين لكم، وقد كنت أنا حتى الآن الذى منعهم من ذلك، على غير ما كنتم تتصورون، وهم سيكونون أصعب وأصعب بقدر شبابهم، وسيكون غيظكم أعظم وأعظم. ذلك أنه إن كنتم تعتقدون أنكم بقتلكم الناس تكممون أفواه أولئك الذين يلومونكم على عدم الحياة حياة مستقيمة، فإنكم تكونون مخطئين فيما تظنون. فهذه الطريقة فى التخلص منهم لا هى بالفعالة كثيراً ولا هى بالجميلة، إنما الأجمل والأسهل، ليس إبعاد الآخرين، بل أن تهيؤا أنفسكم لأن تكونوا على أفضل ما يكون. على هذه التنبؤات إذن أترككم، أنتم يا من صوتم ضدى.

[هـ] أما هؤلاء الذين صوتوا بإطلاق سراحى، فإنه يلذ لى التحدث معهم بخصوص الأمر الذى حدث، فى الوقت الذى ينشغل فيه المسئولون، وحتى أقاد إلى المكان الذى يجب أن أموت عند الذهاب إليه. فأبقوا إلى جانبى حتى يأتى ذلك ٤٠ الحين، فليس هناك ما يمنع من أن نتبادل الكلمات طالما كان ذلك ممكنا. [٤٠أ] ذلك أننى أريد أن أبين لكم، كأصدقاء، كيف أتصور هذا الذى حدث لى اليوم. فقد حصل لى، أيها المواطنون القضاة[١٣٣]، وحينما أسميكم قضاة فإنى أسميكم بالتسمية الصحيحة، حصل لى شىء مدهش، فالصوت الإلهى المألوف كان يظهر دائماً وبتكرار كثير، حتى فى الحالات البسيطة، فى الوقت السابق على اعتزامى عمل شىء على نحو غير سليم، ليعارضنى. واليوم يحدث لى، كما ترون أنتم أنفسكم، شىء قد يرى البعض، بل إن هناك بالفعل من يعتقد، أنه أعظم الشرور. ولكن [ب] علامة الإله لم تأت لتعارضنى لا لحظة خروجى من المنزل هذا الصباح، ولا حينما صعدت هنا أمام المحكمة، ولا أثناء كلامى مهما يكن ما كنت أريد أن أقول. هذا على حين أنه أثناء أحاديث أخرى كثيرا ما كان يقطع كلامى فى منتصفه. أما اليوم فلم يعارضنى قط بشأن هذه المسألة لا فيما أفعل ولا فيما أقول. أى تعليل أراه إذن لهذا؟ سأقوله لكم: فيمكن أن يكون ما يحدث لى هذا خيراً، وأننا لسنا على حق فى رأينا [جـ] حينما نعتقد أن الموت شر. وعندى أن هناك برهاناً قويا على ذلك: فما كان يمكن للعلامة المعتادة ألا تأتى لتعارضنى إذا لم يكن ما كنت بسبيل عمله طيبا.

(١٣٣) هذه أول مرة يستخدم فيها سقراط هذا الاسم فى مخاطبته لأعضاء المحكمة.

http://nj180degree.com

ولنضع فى بالنا بهذا الصدد كذلك كيف أن هناك أملاً كبيراً في أن يكون هذا أمراً طيباً. فالميت يكون على أحد حالين: إما أن يصبح عدما ولا يكون له إحساس بأى شىء كان، وإما، بحسب ما يقال، أنه يحدث تحول وهجرة للنفس من هذا المكان إلى مكان آخر. وإذا كان الموت هو عدم الإحساس بأى شىء، [د] كما هو الحال فى النوم عندما ينام المرء ولا يرى أى شىء ولا حتى فى الحلم، فلكم سيكون الموت مكسبا مدهشا. وإنى لأعتقد أنه إذا كان لأحد أن يختار بين تلك الليلة التى ينام فيها بدون أن يرى أى حلم والليالى والأيام الأخرى من حياته نفسها، وإذا كان عليه، بعد المقارنة مع تلك الليلة، أن يقول بعد الفحص كم من الأيام والليالى عاشها فى حياته هو نفسه وكانت أفضل وأمتع من تلك الليلة، إن أى شخص عادى، بل الملك الكبير نفسه[١٣٤]، [هـ] سيجد أنه يسهل عدها بالمقارنة مع بقية الأيام والليالى. فإذا كان هذا هو الموت، فإنى أقول أنا إنه يعد كسبا، حيث إن كل الزمان لن يبدو أطول من ليلة واحدة. من جهة أخرى، فإذا كان الموت رحلة خارجية من هذا المكان إلى مكان آخر يكون فيه كل الموتى، إذا كان صحيحا ما يقال، فأى خير أكبر من هذا يمكن أن يتصور أيها المواطنون القضاة؟ ذلك ٤١
أنه إذا كان [٤١أ] الواصل إلى هاديس يتخلص من هؤلاء القضاة المزعومين ليجد قضاة حقيقيين، مينوس ورادامنتوس وإياكوس وتربتوليموس الذين، فيما يقال، يحكمون بالعدل هناك، وغيرهم من أنصاف الآلهة الذين كانوا عدولا أثناء حياتهم هم أنفسهم، فهل ستكون هذه الرحلة الخارجية بلا قيمة؟ وإذا كان المرء، من جهة أخرى، سيصاحب أرفيوس وموسايوس وهزيود، فمن منا لا يرغب فى ذلك مهما يكن الثمن؟ وأنا من جانبى أرغب فى الموت مرات عديدة إن كان هذا صحيحا، وما دمت [ب] سأستطيع أنا نفسى الدخول فى أحاديث رائعة كلما قابلت بالاميدس وإياس وتيلامون[١٣٥]، وغيرهم من القدماء الذين ماتوا بسبب حكم ظالم، مقارنا مصيرى بمصيرهم، وهذا، فيما أظن، لن يكون بغير متعة. ولكن المتعة الأعظم ستكون فى قضاء وقتى فى فحص وسؤال هؤلاء الذين من هناك، كما كنت أفعل مع الذين من هنا، بحثا عمن هم حكماء بينهم وعمن يعتقدون أنهم حكماء ولكنهم ليسوا كذلك. فمن لا يرغب، أيها المواطنون، مهما يكن الثمن، فى فحص ذلك الذى

(١٣٤) هكذا كان يلقب ملك الفرس، القوة السياسية العظمى فى ذلك الحين.
(١٣٥) معظم هؤلاء من سبق ذكرهم الهة وشخصيات أسطورية.

http://nj180degree.com

قاد [جـ] الجيش الكبير أمام طراوده أو أوديسيوس أو سيزيفون أو آلاف غيرهم ممن يمكن ذكر أسمائهم من الرجال والنساء، والذين سيكون الحوار معهم ومصاحبتهم وفحصهم هناك سعادة لا توصف؟ وعلى أية حال، فإن هذا، لا شك، لن يكون سبباً للحكم على الناس بالإعدام! وليس الناس هناك أسعد فقط ممن هم هنا، بل إنهم كذلك منذ ذلك الوقت فصاعداً خالدون أبد الدهر، على الأقل إن كان ما يقال حول هذا صحيحاً[١٣٦].

وأنتم أيضاً، أيها المواطنون القضاة، يجب أن تكونوا على أمل قوى بإزاء الموت، وأن تعتبروا أن هناك شيئاً حقاً، وهو [د] أن رجل الخير لا يستطيع الشر أن يلحقه لا فى حياته ولا بعد مماته، وأن الآلهة لا تهمل أمره. وما يحدث لى الآن ليس وليد المصادفة، بل إنه واضح أمامى أن الموت منذ الآن، والتخلص من كل العلائق، هو الأفضل لى. ولهذا السبب فلم تظهر لى العلامة [الإلهية] فى أية لحظة، ولنفس السبب أيضاً فإننى لا أحمل فى قلبى ضغنا كبيراً ضد من صوتوا بإدانتى ولا ضد متهمى. هذا رغم أن من صوتوا بإدانتى ومتهمى لم تكن تدفعهم هذه الفكرة ذاتها، بل كانوا يعتقدون أنهم ملحقون بى الضرر، [هـ] وهم على هذا مستحقون اللوم. والذى أطلبه منهم يقيناً هو أنه حينما يكبر أطفالى فعاقبوهم، أيها الأثينيون، بأن تقلقوهم كما أقلقتكم أنا، وذلك إن بدا لكم أنهم يعنون بالثروة أو بأى شىء آخر فوق عنايتهم بالفضيلة. وإذا بدا لهم أنهم شىء، بينما هم ليسوا كذلك، فلوموهم، كما فعلت أنا معكم، على عدم العناية بواجب العناية[١٣٧]، وعلى الاعتقاد ٤٢ أنهم شىء، بينما هم بغير قيمة. إن [٤٢أ] فعلتم هذا، فسأكون قد عوملت منكم بالعدل، أنا وأبنائى.

ولكن ها قد حانت الساعة للرحيل، أنا لأموت، وأنتم لتعيشوا. من منا يذهب إلى المصير الأفضل؟ الأمر غير واضح أمام الجميع، باستثناء الإله.

انتهت محاورة "الدفاع"

(١٣٦) سقراط لا يتخذ حتى النهاية موقفا حاسما بخصوص الخلود. انظر كذلك اخر عبارة فى المحاورة.

(١٣٧) وهو النفس.

http://nj180degree.com

مقدمة « أقريطون »

هذه محاورة فريدة بين محاورات أفلاطون الأولى. فعلى حين أن معظم هذه المحاورات تحاول الإجابة عن سؤال: "ما هو كذا؟"، فإننا نجد "أقريطون" تحاول الإجابة عن سؤال عملى: هل يجب على سقراط أن يهرب من سجنه رغم إرادة الأثينيين؟ من جهة أخرى، فعلى حين أن كل هذه المحاورات تنتهى نهاية "سلبية"، بمعنى أنها لا تصل إلى العثور على إجابة مرضية عن السؤال الذى تبحث فيه، فإننا نجد محاورتنا تصل إلى نتيجة "إيجابية"، وتتمثل هذه الإيجابية فى اتفاق المتحاورين على ما انتهى إليه الفحص. هذه إذن محاورة فريدة بين محاورات الشباب لأفلاطون.

وهى أيضاً مؤلف هام كانت له مكانته عند المهتمين بسقراط وخاصة فى الحضارة الغربية، حيث إنها هى التى تشكل، مع "الدفاع"، الصورة التى يكونها الطالب والقارئ هناك عن سقراط، وكأنها وضعت لتؤثر فى النفس وليبقى أثرها فى الذهن طويلا، وذلك بما لها من خصائص البساطة والإيجاز، وبما تقدمه من مفارقة شديدة بين هدوء سقراط البالغ وانفعال صديقه أقريطون. وسقراط يظهر هنا رجل المبدأ والشرف، رجل الاتساق مع النفس، فكراً وماضياً، وهو اتساق يصل به إلى حد التضحية، وما أقربه هنا إلى الشهداء.

وإذا كان من المؤكد أنها محاورة "سقراطية" قلباً، فإننا لا نتردد مع ذلك فى قول إنها أفلاطونية قالباً. فشكل المحاورة وترتيب خطواتها نجده فيها وفى الغالبية الساحقة من محاورات أفلاطون ككل. وهذا الشكل، وهو فنى وفلسفى معاً، لا يمكن أن ننسبه إلا إلى قلم أفلاطون حتى على فرض قبول أنه تأثر فى هذا بمناقشات سقراط التاريخى، ولكن لما كنا لا نملك الوصول إلى يقين عن "شكل" تلك المناقشات، فالآمن هو أن ننسب شكل الحوار إلى كاتبه، وهو أفلاطون. بل هناك ما هو أكثر من ذلك. فليس ثمة دليل على أن هذا هو ما قال سقراط بالفعل فى سجنه، وليس من دليل على أنه قابل فى تلك الساعة من الصباح صديقه أقريطون، وليس من دليل على أن أقريطون هو الذى قدم إليه اقتراح الهرب، ولا إذا كان قد قدمه باسمه هو أم باسم رفقاء سقراط وتابعيه والمعجبين به. وإنما كل ما نملك أن

http://nj180degree.com

نقول هو أن ما يوضع هنا على لسان سقراط كان يمكن له أن يقوله بالفعل، ولعله قال شيئاً مقارباً من هذا. أما أقريطون فربما لا يكون هنا إلا المتحدث باسم أصدقاء سقراط. وربما يكون أفلاطون قد لجأ إلى اختيار هذه الشخصية وحدها لدوافع فنية، أهمها أن الحوار يكون عادة بين شخصين، كما أن تركيز الحوار بين سقراط وشخص واحد أدعى إلى التأثير ويناسب وقت الحوار وهو قبيل ظهور الشمس، ولعله اختار أقريطون وليس شخصاً آخر لمقاربته سقراط فى السن ولصداقته الحميمة له منذ وقت بعيد ولثرائه. وهكذا فإن المحاورة سقراطية قلباً ولكنها أفلاطونية قالباً.

وقبل الحديث عن مضمون المحاورة فلسفياً يحسن أن نتحدث من الآن عن موضوعها الأول، لكى لا نقول "الظاهرى"، ألا وهو هروب سقراط من السجن بين عرض أقريطون ورفض سقراط. الأرجح أن خصوم سقراط لم يكونوا يقصدون أن يصل الأمر إلى حد إعدام سقراط، بل لعل هدفهم كان إسكاته فقط، ولا شك أن نفيه من أثينا كان الحل المثالى من وجهة نظرهم. ومن هنا فإننا يمكن أن نظن أنهم، بعد أن تطور الأمر بحيث صدر الحكم بالإعدام، كانوا سيسعدون بهرب سقراط من السجن وبمغادرته للمدينة وبلجوئه إلى مدينة أخرى، وكانوا سيغمضون العيون عن ذلك حتى يتم. ومن جهة أخرى فإن الهرب من السجن لم يكن، كما يبدو من المحاورة نفسها، شيئاً مستحيلاً، وكان يمكن أن يتم بمساعدة الحراس أنفسهم بعد دفع المال إليهم رشوة. ومن المؤكد أن أصدقاء سقراط، وفى مقدمتهم أقريطون، كانوا يفكرون فى مساعدته على الهرب، ومن المحتمل أنهم أعدوا للأمر عدته بحيث لم يعد باقياً من أجل تنفيذ خطتهم إلا موافقة سقراط نفسه. ماذا كانت الاعتبارات التى يكون هؤلاء قد اعتمدوا عليها ليعرضوا عليه الهرب؟ هناك اعتبار مثل إنقاذ سمعة هؤلاء الأصدقاء الذين كان يمكن أن يتهمهم العامة بأنهم تخاذلوا عن مساعدة صديقهم (٤٥هـ)، وهناك آخر من مثل أطفال سقراط الذين لا يزالون فى حاجة إلى رعايته (٤٥د)، ولكن هناك على الخصوص اعتباراً ثالثاً لعله كان الأول عند أشخاص مثل سيمياس وكيبيس من مدينة طيبة، وكانا من المعجبين بسقراط (وهما اللذان يحاورانه فى محاورة "فيدون" التى تصف ساعاته الأخيرة فى السجن قبل تناوله السم)، ألا وهو أن الحكم الذى صدر ضد سقراط كان ظالما، فسيكون إذن لسقراط أن يهرب وهو مطمئن الضمير.

http://nj180degree.com

وأقريطون يصل فى المحاورة (٤٥جـ) إلى حد قول إن سقراط إن رفض الهرب فإنما سيساعد بهذا أعداءه على تنفيذ خطتهم التى ترمى إلى القضاء عليه (ونلاحظ أن أفلاطون يعرض هنا وجهة نظر تعارض فرضاً عرضناه منذ قليل، ولعل أفلاطون يقصد بعض متهمى سقراط وخاصة مليتوس[1]). وهو يحاول أن يزيل اعتراضات ممكنة من جانب سقراط، منها مثلا اعتبار فقره، ولكنهم جميعاً مستعدون لدفع المال اللازم، وهو نفسه يضع كل ثروته تحت تصرف سقراط، ومنها أنه قد لا يدرى أين يذهب خارج أثينا، فيؤكد له أقريطون أنه أينما ذهب فسيكون هناك من يحسن استقباله، وخاصة فى تساليا حيث لأقريطون أضياف سيعرفون كيف يحمون سقراط ويقدرونه (٤٥ب - جـ)، أخيراً فإذا كان يظن أن أصدقاءه الأثينيين قد يصيبهم بعض الضر أو المضايقة من جانب السلطة التى ستتهمهم بمساعدته على الهرب وتعاقبهم على ذلك، فإن عليه أن يطمئن، فالدرهم ساحر خبير، وعلى كل شىء قادر. هذه هى الاعتبارات التى يدفع بها أقريطون، وهو يغلفها بغلاف أخلاقى زائف حين يقول إن هذا هو ما سيختاره أحسن الرجال وأشجعهم، وخاصة إذا كان ممن يراعون الفضيلة طوال حياتهم كسقراط (٤٥د)، ومشيراً كذلك إلى "العار" الذى سيلحق بأصدقاءه، وإلى "الشر" الذى سيحل به.

كيف سيرد سقراط؟ بعد "خطبة" أقريطون الطويلة والمليئة بالحرارة، تلقى كلمات سقراط الأولى بالهدوء إلى روع أقريطون وروع القارئ: حماس أقريطون عظيم، ولكن قيمته ستعظم لو كان مضافاً إليه "الاستقامة"، أما بدونها فإنه سيكون مجلبة للأسف. والواجب هو أن نفحص ما إذا كان علينا أن نسلك هذا السلوك أم لا (٤٦ب). بعبارة أخرى فإن الأساس ليس هو التلقائية والتقليد بل عكسهما تماماً: الفحص والتعقل. وعلى هذا يعارض سقراط مرجع أقريطون الأخلاقى الذى كان "أحسن الرجال وأشجعهم" (فى نظر مرجع أقريطون الأخلاقى الذى كان "أحسن الرجال وأشجعهم" فى نظر العامة) بالرجال الذين لا يتكلمون فى الهواء، الذين يقولون شيئاً مفيداً، أى شيئاً ذا مغزى ويقاوم الهجوم (يقول النص اليونانى حرفياً: "الذين يعتقدون أنهم يقولون شيئاً"، ٤٦د)، باختصار أولئك الذين يمثلون العقل، ولما

(١) فى "الدفاع" (٣٧جـ) يعلق سقراط نصاً على اقتراح النفى: "وربما يكون هذا هو بالفعل ما قد تقترحونه علىّ [كعقاب]"، مما يؤيد فرضنا نحن.

http://nj180degree.com

كان العقل لا يعرف الانفعال، فإن سقراط يعود ليؤكد على ضرورة الهدوء. وفى سخرية هادئة يطلب من أقريطون أن يكون هو الحَكَم، لأنه ليس فى موقف من سيموت بعد قليل، ولهذا فإن قدرته على الحكم ينبغى أن تكون سليمة (٤٧أ). ثم يقدم سقراط الأسباب التى تجعله يرفض الهرب من السجن، وتجعله يفضل الرضوخ لحكم الأثينيين حتى ولو كان ظالماً. فى مقدمة تلك الأسباب وأهمها أنه لا يجب رد الظلم بالظلم، ففعل الظلم شر فى كل الحالات حتى لو كان ذلك رداً لظلم يقع عليك. كذلك، فإن سقراط ملتزم بقوانين المدينة وعليه أن يطيعها حتى النهاية – هذان هما السببان الرئيسيان لقرار سقراط: سبب أخلاقى وآخر "مدنى" أو "وطنى"، وسنعود إليهما عند الحديث عن الأخلاق وعن موقف سقراط من المدينة.

وإذا كان هذان السببان يكوّنان الجانب الإيجابى من اعتبارات سقراط، فإنها تحوى أيضاً جانباً سلبياً، ذلك أنه حتى إذا هرب، فإن حساب النتائج ليس إيجابياً، لا فيما يخصه ولا فيما يخص أصدقاءه ولا فيما يخص المدينة وقوانينها. فإن حدث وهرب، فأين سيذهب؟ لن تقبله المدن ذات القوانين الحسنة وستطرده كمخرب لقوانين مدينته ذاتها وخشية أن يخرّب قوانينها هى الأخرى. ولا يرضى سقراط أن يذهب إلى تساليا حيث أضياف أقريطون، فهى بلد المجون والإباحية، وسيكون هناك تسلية لأهلها وموضعا لمزاحهم، وسيكون عليه أن يتحملهم مهما قالوا فى حقه من أقوال تهين وتحط من شأنه. أما عن أطفاله: فهل سيأخذهم معه إلى منفاه ليصبحوا "غرباء" ولا يكون لهم حق المواطنة؟ وهل يظن أن أبناءه سيحمدون له فعلته هذه؟ أم يبقيهم فى أثينا فى رعاية أصدقائه؟ ولكن هذا هو نفسه ما سيحدث إن هو أطاع حكم المحكمة واحترم القوانين. فسقراط إذن لا يجنى شيئا فى هذه الحياة من الهرب، ولا حتى فى الحياة الأخرى: فهو فى هذه الحالة سيصل إلى هناك مرتكبا الظلم، ولن تحسن آلهة القوانين استقباله. وفيما يخص أصدقائه فمن المؤكد أن أضرارا ستصيبهم فى أموالهم وفى أشخاصهم، من جراء مساعدتهم له على الهرب. أما عن الإساءة إلى المدينة وإلى قوانينها فإنه أمر واضح ولن يُغفر له لا فى هذه الحياة ولا فى الأخرى. هذا هو ما ينتهى إليه تدبر الأمر، وما يقول به العقل. فلن يهرب سقراط إذن، وسيبقى فى موضعه منفذاً حكم الأثينيين.

ونتحدث الآن عن الأفكار والمبادئ الفلسفية التى تعرضها المحاورة، وذلك على الترتيب التالى: الأخلاق، المعرفة والسلوك، ثم سقراط والمدينة.

http://nj180degree.com

المعروف أن للمحاورات الأفلاطونية عناوينها التى وضعها أفلاطون، ولكن لها كذلك عناوين فرعية وضعها مصنفو المحاورات الذين قسموها إلى "أنواع". وهكذا فإلى جانب عنوان "أقريطون" نجد عنوان "فيما يجب فعله" أو "عن الواجب"، ونجد كذلك: "من النوع الأخلاقى". ولم يخطأ المصنفون فى حكمهم هذا، لأن المحاورة تبحث فيما ينبغى أن يفعل فى موقف معين، وهى تتعرض لمشكلة السلـوك الأخلاقى بصفة عامة. ذلك أنه ينبغى أن نؤكد على أن هرب سقراط أو بقاءه ما هو، فى نظر المحاورة ذاتها، إلا حالة فردية تخضع للفحص، وذلك على ضوء مبادئ عامة، بحيث إن الحوار سرعان ما يرتفع من جزئية من جزئيات السلوك إلى العموميات التى يجب أن تحكم كل القرارات الأخلاقية. وأفلاطون حريص كل الحرص على إبراز هذا الموقف، ويعود إليه مرة ومرة. ففور أن يفرغ أقريطون من عرضه، أو من "خطبته" إن شئنا، يسرع سقراط بالتأكيد على أن الحجج والمبادئ (logoi) التى قال بها فى الماضى لا يمكن له أن يلقى بها الآن أرضا لأن نازلة نزلت به، بل هى تبدو له ثابتة لا تزال هى هى أو تكاد، وهو يبقى على احترامها وعلى الولاء لها كما كان الحال فى الماضى (٤٦ب – جـ). فلن يغير وضعه الخاص الآن من مواقفه الفكرية والأخلاقية التى أخذ بها طوال حياته السابقة. وهكذا يعارض سقراط الحالة الجزئية بالمبدأ العام الذى يجب أن تكون له صفة الدوام والثبات. فهل سيغير خطر الموت من حقيقة المبادئ التى كان قد ارتضاها لنفسه، أم أنه كان فى كل حياته الماضية يتحدث عنها حديث مزاح وثرثرة؟ (٤٦د). وهل كان سقراط وأقريطون كالأطفال طوال حياتهما لا يدرون عم يتحدثون؟ (٤٩ب). كلا، بل لا يزال سقراط يعتبر هذه المبادئ حقيقية أمس واليوم، ويوافقه أقريطون على ذلك (٤٩د – هـ).

ما هى هذه المبادئ؟ هى أربعة عددا.(١) أولها وأعمها يتعلق بسؤال له خطره: ما هو مصدر القيم الأخلاقية؟ وفى محاورتنا يوضع هذا السؤال وضعا أدق: هل الجمهور، أو الكثرة، أو "الرأى العام"، هو مصدر القيم؟ أقريطون يبدو وكأنه لا يخشى شيئاً قدر خشيته لرأى العامة، للرأى العام، يخشاه لما قد يقوله عن تفضيله لماله على صداقته مع سقراط إن هو لم يعرض مساعدته لهرب الفيلسوف، يخشى "السمعة" السيئة له ولأصدقائه إن هم ظهروا وكأنهم تقاعسوا عن إخراج سقراط من السجن (٤٤ب – جـ). فالعامة أو الكثرة عنده قادرة على كل شىء،

http://nj180degree.com

وعلى فعل الشر، بل وعلى ارتكاب أكبر الشرور، وهو الحكم بالموت فى نظر أقريطون (٤٤د). أما سقراط فإنه لا يهمه أمر الكثرة مهما فعلت ومهما هددت بالسجن أو التعذيب أو مصادرة الأموال (٤٦جـ)، بل هو يشك فى أنها قادرة على فعل الشر، لأن القادر على فعل الشر قادر على فعل الخير ما دام يقصد ذلك قصداً[٢]. أما العامة فإن كل ما تفعل إنما هو نتيجة للمصادفة، تماماً كما يحدث فى نظام القرعة الذى تختار به فى النظام الديمقراطى الأثينى حكامها. فالمبدأ إذن لا يجب أن يكون اتباع آراء الكثرة، لأن هناك آراء يجب أن تتبع وأخرى يجب أن ترفض (٤٦د – هـ). إنما الآراء أو الأحكام التى يجب أن تتبع هى آراء أصحاب العقل، أى العقلاء والحكماء (٤٧أ). ومن هم هؤلاء إن لم يكونوا "المتخصصين" فى مسائل العدل والظلم، الجمال والقبح، والخير والشر؟ (٤٧ب). إن الواجب علينا أن نرفض رأى الكثرة وأن نتبع حكم المتخصص حتى ولو كان فرداً واحداً (٤٧د). ذلك أن هذا الفرد المتخصص، الحكَم الوحيد، إنما يعبر عن الحقيقة ذاتهـا (٤٨أ). ويحس القارئ لهذه الصفحات أن ذلك الحكم الفيصل، ذلك الفرد المتخصص فى شئون الخير والشر، إنما هو سقراط نفسه، هو سقراط بقدر ما أنه يعبر عن العقل وعن إلزامه (انظر ٤٨جـ). ولا يغفل أحد عن خطورة هذا المبدأ الذى تتبعنا درجاته من رفض لرأى الكثرة إلى فكرة "الرجل الحكيم" إلى فكرة "المتخصص" إلى فكرة "الحقيقة" التى مصدرها العقل، فهو يتضمن ضربة قاصمة للنظام الديمقراطى الأثينى كله القائم على حكم الكثرة أو الأكثرية (أى حرفيا باليونانية "الديمقراطيا")، ومعارضته بحكم المتخصص، أى الفيلسوف فى النهاية، ولو كان فرداً وحيداً، وهى الفكرة التى سنجدها فى أساس النظام السياسى فى محاورة "الجمهورية".

(٢) المبدأ الثانى هو أن المهم عندنا يجب أن يكون، ليس مجرد الحياة، بل الحياة الطيبة أو الخيّرة (٤٨ب)، أى الحياة القائمة على القيم الأخلاقية المقبولة.

(٣) المبدأ الثالث هو أن الخير والجمال والعدل شىء واحد ونفس الشىء (٤٨ب).

---

(٢) هذا مبدأ أفلاطونى هام نجده على الأخص فى محاورات الشباب ويحتاج إلى بحث متعمق، ولكن الظاهر أنه يقصد به أن المتخصص قادر على الشىء وضده، لأنه يعرف كل شىء عن موضوعه (انظر مثلا محاورة "هبياس الصغرى").

http://nj180degree.com

(٤) إذن، فلما كان الأهم هو الحياة الخيرة، ولما كان الخير والعدل شيئاً واحداً، فإنه لا يجب بحال أن نرتكب الظلم، وهذا هو المبدأ الرابع (٤٩أ ، ب). فمهما تقل العامة ومهما يحل بنا، فإن الظلم سيظل فى كل الحالات شراً وعاراً، ويجب البعد عنه وتجنب ارتكابه، حتى ولو كان الظلم قد حل بنا نحن أنفسنا. إذن، فلن نرد على الصفعة بالصفعة، لأنه ليس مسموحاً بارتكاب الظلم على أى نحو حتى فى حق من يسيئون إلينا.

هذا المبدأ الأخير هو المبدأ الأساسى فى محاورتنا، وما سبقه من مبادئ كان تمهيداً وإعداداً له، وعلى أساسه سيتم فحص الحالة الخاصة المعروضة (٤٩هـ - ٥٠أ). وسقراط وأفلاطون على وعى بأن كثيرين لا يقبلون هذا المبدأ، ويضيف أفلاطون: وسيكون هناك دائماً كثيرون يرفضونه. ورغم هذا فإن التعارض مطلق بين ارتكاب الظلم وعدم ارتكاب الظلم، ويجب عليك أن تختار بينهما ولن تختار إلا جانباً واحداً فقط. وما من شك أننا هنا (٤٩جـ - هـ) أمام إحدى قمم المحاورة التى تبرز إلزام المبدأ الأخلاقى وإطلاقه وعموميته. كذلك فإن هذا الجزء يبين أن فضيلة العدل تحتل مكان المركز بين القيم الأخلاقية عند سقراط وأفلاطون، والإشارات كثيرة إليها (انظر على الخصوص ٤٩ب، ٥١ب - ٥٤ب، وغير ذلك).

هذه هى المبادئ الأخلاقية التى يمكن القول إنها تكوّن الهيكل الفلسفى للمحاورة، وعلى ضوئها يبدأ سقراط وأقريطون فى فحص ما إذا كان عدلا الهرب من السجن أم لا (٥٠أ)، ويعود أفلاطون إليها مرة أخرى ملخصا لها فى نهاية الحوار (٥٤ب -جـ). ومكانها هذا الهام ليس مصادفة، وإنما هو ترجمة لأحد أعمدة النظرية السقراطية (والأفلاطونية من بعدها، وهى وريثتها) فى الأخلاق، ألا وهو أن المعرفة أساس السلوك. وقد رأينا هذا المبدأ فى التطبيق أثناء حوار سقراط ورجل الدين فى محاورة "أوطيفرون"، ولنرجع مرة أخرى إلى نهاية تلك المحاورة لنجد سقراط يريد أن يعتقد أن أوطيفرون لا يعرف جيد المعرفة ما هى التقوى، وإلا لما وصل به الأمر إلى حد اتهام أبيه بالقتل. أما هنا فإن إرساء المبادئ النظرية المذكورة سابقاً هدفه إيضاح أسس السلوك قبل اختيار القرار الذى لا يتم إلا بعد الفحص العقلى. وهناك إشارة إلى هذا الأساس أثناء بحث مصدر القيم الأخلاقية هل هو الجمهور أم العقل، وذلك حين يتساءل سقراط، كما ألمعنا:

http://nj180degree.com

هل ما كانوا يتحدثون عنه من مبادئ لم يكن إلا على سبيل السمر؟ بعبارة أخرى: هل الفكر سيكون أساس السلوك ويكون هو ما نطيع، أم أنه سيكون ترفا زائداً؟ (٤٦د، ٤٩أ – ب). وبعد أن يتفق المتحدثان على المبادئ الأربعة، يقول سقراط: والآن فلنر نتائج هذا، ولنفحص إن كنا سنرتكب شراً بالخروج من السجن بدون موافقة المدينة. ونجد هذا النص الهام: "إذا وافق إمرؤ شخصا ما على أن شيئاً ما عدل، فهل سيكون واجبا عليه أن يفعله، أم هو سيتخلى عن كلمته؟"، فيجيب عليه أقريطون: "بل يجب عليه أن يفعله" (٤٩هـ، وانظر كذلك ٤٦ب). وهكذا فإن هناك اتصالا مباشراً بين المعرفة والسلوك، بعبارة أخرى: الفكر ملزم بالعمل.

ونأتى الآن إلى تحديد موقف سقراط من المدينة كما تعرضه هذه المحاورة. فى نص يجب أن يسترعى الانتباه (٥٤جـ)، تقول القوانين لسقراط: إن الذى أدانك ليس نحن، القوانين، بل هم البشر. فيجب أن نميز فى مفهوم المدينة بين هذين العنصرين. ولكننا نجد نصا آخر (٥١ب – جـ) يخبرنا أن المدينة هى التى حكمت على سقراط بالإعدام، وأن كل ما كان يستطيع أن يفعله هو أن يحاول إقناعها، وإلا فعليه أن يتحمل كل ما تأمر به، ولأن العدل يريد ذلك. فهذا النص يميل بمفهوم المدينة إلى ناحية مفهوم "الدولة". ويبدو أن الإشارتين ليستا على اتساق واضح، ويظهر نفس الغموض أيضاً بصدد موقف سقراط من أثينا. فالمحاورة تخبرنا أن سقراط كان يحب مدينته (٥٢أ وما بعدها)، والدليل على هذا هو أنه لم يكد يغادرها، ولم يرغب فى رؤية مدينة أخرى أو قوانين أخرى، ولكنها تخبرنا أيضاً، وفى نص تعيد فيه هذا القول (٥٢هـ – ٥٣أ)، أن سقراط كان يمدح فى كل وقت قوانين إسبرطة وكريت، أى أنه كان يمدح فى النهاية هاتين الدولتين، فإذا تذكرنا أن إسبرطة كانت هى عدوة أثينا اللدودة، وعدوة نظامها الديمقراطى على الأخص، ظهر لنا أنه من الصعب تحديد طبيعة تعلق سقراط بأثينا.

ولكى نحاول الخروج من هذا المأزق، يفضل أن نضع السؤال على الوجه التالى: ما هى طبيعة الإلزام الذى يمنع سقراط من الهرب؟ وعلى الأخص: بإزاء من يكون هذا الإلزام؟ والذى يبدو لنا أن سقراط ملتزم قبل كل شىء أمام القوانين التى لم يرفضها وقبل السير عليها، وبتعبير أدق: هو ملتزم بإزاء التزامه بها. فى كلمات أخرى: سقراط لا يهرب لأنه يريد أن يظل متسقا مع نفسه، أى مع عقله،

http://nj180degree.com

ولو هرب لحطم القوانين، وكان قد قبل سلطتها. فالأساس فى سلوك سقراط إذن إنما هو مبادؤه الأخلاقية هو نفسه. ولماذا نذهب بعيداً فى التدليل ولدينا نص صريح يقول: "إننى، طيلة حياتى كلها، وليس اليوم فقط، لا أطيع شيئاً آخر فىّ غير الحجة التى تبدو لى الأفضل بعد التأمل"! (٤٦ب). فهو يفعل ما يفعل ليس بإملاء عاطفة ما، ولكن نتيجة لإلزام عقلى يوجه كل سلوكه الأخلاقى حتى فى لحظات المحنة.

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقدم تفسيراً "لتشخيص" القوانين (انظر ٥٠أ) الذى يميز هذه المحاورة، والذى كان من أسباب شهرتها وتأثيرها. فالكثيرون يأخذونه على أنه حيلة أدبية من أفلاطون لتأكيد تأثير الحجج التى يقدمها على لسانها، وبالفعل فإن لظهورها تأثيراً فنياً على القارئ، ويمكن النظر إلى الأمر نظرة أدبية. ولكن الجوهرى ليس هنا. إنما هذه الفقرة الطويلة (٥٠- ٥٤) تعبير عن مداولة سقراط مع نفسه، أى هى حواره هو ذاته مع عقله. ويبدو أن أفلاطون يصرح لنا صراحة بالأخذ بهذا التفسير: فالعبارات الأخيرة فى الحوار تقول: "هذا هو ما أعتقد أننى أسمعه، كما يعتقد المجذوبون الذين يخرجون عن وعيهم أنهم يسمعون موسيقى الناى. إن صوت هذه الكلمات يهدد ويطنطن فى داخلى ويجعلنى غير قادر عل سماع شىء آخر". وليس أصرح من هذه العبارات فى دلالتها على أن الحجج التى تعرضها القوانين إنما هى أفكار سقراط تلح وتلح عليه حتى لتصبح أقرب ما تكون إلى الوسوسة. ومن جهة أخرى فإن هذه الطريقة فى تخيل شخصية أخرى تقوم بالحوار إلى جانب سقراط ومحاوره، ولكنها تعبر فى الحقيقة عن رأى سقراط نفسه، لا نجدها فقط فى محاورتنا هذه، بل وفى محاورات أخرى. فأفلاطون يستخدمها فى محاورة "هبياس الكبرى" مثلا وفى غيرها. وكثيراً ما يقول سقراط فى معظم المحاورات، بعد أن يكون الحوار قد وصل إلى موقف حرج: انظر لدىَ فكرة، أو: سمعت أحدهم يقول، أو: رأيت فيما يشبه الحلم أن ... (انظر كذلك "أوطيفرون"، ١١هـ). وسنلاحظ أن القوانين تظهر على المسرح بعد وصول المحاورة إلى لحظة الارتباك (فى ٥٠أ يقول أقريطون: "أنا لا أستطيع الإجابة عن سؤالك يا سقراط، فأنا لا أفهمه"، وبعد ذلك مباشرة تظهر القوانين مشخصة"). وهكذا فليس تشخيصها بحيله أدبية، ولا هو "بتعويذة" كما رأى البعض، وإنما هو

http://nj180degree.com

تطبيق لإحدى طرائق الحوار الفلسفى الأفلاطونى، وهو مالا يمنع أن يكون له فى هذه المحاورة، وفى هذا الموقف بالذات، تأثير أدبى كبير.

فهذا إذن اعتبار آخر يرجع بنا إلى ما قلناه من أن المحاورة سقراطية قلبا ولكنها أفلاطونية قالباً. وهذا يثير من جديد "تاريخية" المحاورة. فهل هذه الاعتبارات هى التى حدت بالفعل بسقراط التاريخى إلى اتخاذ موقفه هذا؟ لا زلنا نرى أنه من الصعب جداً بل من المستحيل اليوم وغداً الإجابة عن هذا السؤال.